

الروضة البهية

في شرح الأحاديث القدسية الأربعينية

لملا علي القاري

تنقيح وتبويب وشرح

نذير محمد مكتبي

دار البشائر الإسلامية



الرَّوْضَةُ البَهِيَّةُ

فِي شَرْحِ الأَحَادِيْثِ القُدْسِيَّةِ الأَرْبَعِيْنِيَّةِ

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

مُقَدِّمة الشارح

بسم الله الرَّحمـٰن الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتـمُّ التَّسليـم علىٰ سيِّدنـا ومـولانـا رسـول الله محمـدٍ وعلـىٰ آلـه وصحبـه أجمعين.

أمَّا بعد:

فإنَّ العناية بالأحاديث النبويَّة الشريفة كانت دأب علماء الإسلام وديدنَهم بَدْءاً من عصر النبوَّة وامتداداً إلىٰ ما تلاه من الأعصار.

فكانوا يحفظونها، ويدوّنونها، ويعتنون بها روايةً ودرايةً، وظهر فيهم أئمّة كبار انتهت إليهم رئاسةُ علم الحديث، وخفقت فوق رؤوسهم رايتُه، وتبعتهم الأُمَّة تتلقّاه عنهم، وتحفظه منهم كصاحبـي الصحيحين البخاريّ ومسلم رحمهما الله، وأصحاب السنن كالترمذيّ وأبـي داود والنَّسائيّ وابن ماجه رحمهم الله، وأصحاب الصحاح كابن حبّان وابن خزيمة، وأصحـاب الجـوامـع والمسـانيـد والمصنَّفـات والأجـزاء والمستخـرجـات والمستدركات.

ومنهم من اهتمَّ بشرح الحديث وتقسيمه وتبويبه علىٰ أبواب الفقه الإسلاميِّ أو حسب المواضيع المختلفة ككُتُب أصحابِ السنن وصَحيحَيْ البخاريِّ ومُسلمٍ وشُروحها المتنوِّعة.

ومن أقسام الحديث الشريف التي حازت علىٰ اهتمام طائفة من علمائه والباحثين في رحابه الواسعة وروضاته الغَنّاء الحديثُ القدسيُّ. وهو ما رواه سيّدنا رسول الله محمد ﷺ عن ربِّ العِزَّة تبارك وتعالىٰ بواسطة الملك جبريل عليه السلام، أو برؤيا المنام أو بالإلهام والإلقاء في الرُّوع.

ونذكر فيما يلي ما جاء من أقوال العلماء في تعريفه وصيغة روايته والتفريق بينه وبين غيره من الكلام المقدَّس:

قال السيِّد الشَّريف علي بن محمد الجُرجانيّ في تعريفاته:

الحديث القدسيّ هو من حيث المعنىٰ من عند الله تعالىٰ، ومن حيث اللَّفْظ من رسول الله ﷺ، فهو ما أخبر الله تعالىٰ به نبيَّه بإلهامٍ أو بالمنام، فأخبر عليه السلام عن ذلك المعنىٰ بعبارة نَفْسِه. فالقرآن مفضَّلٌ عليه لأنَّه لفظه منزَّل أيضاً. اهـ.

وقال العلاّمة السعد التفتازانيُّ في شرحه علىٰ الأربعين:

والفرق بين الحديث القدسيّ وبين القرآن، أنَّ القرآن هو اللَّفظ المنزل للإعجاز، والقدسيّ ما أخبر الله تعالىٰ نبيَّه عن معناه بالإلهام أو بالمنام، فأخبر النبيُّ أُمَّته بعبارته عن ذلك المعنىٰ فلا يكون معجزاً ولا متواتراً كالقرآن الكريم.

وقال العلاّمة أبو البقاء في فصل القاف في «كُلّياته»:

القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله تعالىٰ بوحيٍ جليٍّ، وأمّا الحديث القدسيُّ فهو ما كان لفظه من عند رسول الله ﷺ ومعناه من عند الله تعالىٰ بالإلهام أو بالمنام.

وقال بعضهم: القرآن لفظ معجز ومنزّل بواسطة جبريل عليه السلام، والحديث القدسيّ غير معجز وبدون واسطة.

وقال العلّامة الكرمانيُّ في شرحه علىٰ صحيح البخاريّ:

فإن قلتَ فما الفرق بين الحديث القدسيّ وبين القرآن؟

قلتُ: القرآن لفظ معجز ومنزَّل بواسطة جبريل، وهذا غير معجز وبدون الواسطة، ومثله يُسمّىٰ الحديث القدسيّ والإلـٰهيّ والربّانيّ.

فإن قلتَ: الأحاديث كلُّها كذلك، وكيف لا وهو ﷺ ما ينطق عن الهوىٰ؟

قلتُ: الفرق بأنَّ القدسيَّ مضاف إلىٰ الله تعالىٰ ومرويٌّ عنه بخلاف غيره.

وقد يُفرَّق بأنَّ القدسيَّ ما يتعلَّق بتنزيه ذات الله تعالىٰ وبصفاته الجلاليّة والجماليَّة منسوباً إلىٰ الحضرة المقدَّسة تعالىٰ وتقدَّس. اهـ.

وقال ابن حجر الهيتميُّ في شرح الأربعين النوويَّة:

اعلم أنَّ الكلام المُضاف إلىٰ الله تعالىٰ أقسامه ثلاثة:

أولها: وهو أشرفها: القرآن الكريم لتميُّزه عن البقيَّة ــ أي بقيَّة أقسام الكلام المضاف إلىٰ الله ــ بإعجازه من أوجه، وهي: كونه معجزةً باقيةً علىٰ ممرِّ الدَّهر، محفوظةً من التغيير والتبديل، وبحرمة مسِّه للمحدِث، وتلاوته لنحو الجُنُب، وروايته بالمعنىٰ، وبتعيُّنه في الصلاة، وبتسميته قرآناً، وبأنَّ كلَّ حرفٍ منه بعشر حسنات، وبامتناع بيعه في رواية عند أحمد وكراهة عندنا ــ أي الشافعيّة ــ وبتسمية الجملة منه آيةً وسورةً.

وغيره من بقيَّة الكُتُب والأحاديث القدسيَّة لا يثبت لها شيء من ذلك.

ثانيها: كُتُب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل تغييرها وتبديلها.

ثالثها: بقيّة الأحاديث القدسيَّة وهي ما نُقِل إلينا آحاداً، أي من غير

اشتراط تواتره عن النبـيّ ﷺ مع إسناده لها عن ربِّه تعالىٰ، فهي من كلامه تعالىٰ. فتُضاف إليه تعالىٰ وهو الأغلب. ونسبتُها إليه حينئذٍ نسبة إنشاءٍ، لأنَّه المتكلِّم بها أوَّلاً، وقد تُضاف إلىٰ النبـيِّ ﷺ، لأنَّه المخبر بها عن الله تعالىٰ بخلاف القرآن الكريم، فإنَّه لا يُضاف إلاَّ إليه تعالىٰ، فيُقال فيه ــ أي القرآن ــ قال الله تعالىٰ، ويُقال فيها ــ أي الأحاديث القدسيَّة ــ قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربِّه.

وقال رحمه الله: ولروايتها صيغتان:

إحداهما: أن يقول: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تعالىٰ، وهي عبارة السَّلَف، ومن ثمَّ آثرها الإمام النوويُّ في الأربعين وغيرها.

وثانيهما: أن يقول: قال الله تعالىٰ فيما رواه عنه رسول الله ﷺ، والمعنىٰ واحد.

ثمَّ قال رحمه الله: ونسبتها ــ أي الأحاديث القدسيَّة ــ إلىٰ الله تعالىٰ حينئذٍ نسبة إنشاءٍ، لأنَّه المتكلِّم بها أوَّلاً.

وقال الحلبـيُّ في حاشية التلويح:

الأحاديث الإلـٰهيَّة: هي التي أوحاها الله تعالىٰ إلىٰ النبـيِّ ﷺ ليلة المعراج، وتُسمّىٰ بأسرار الوحي.

ويتلخَّص من هذه الأقوال ما يلي:

أولاً: الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسيّ:

(أ) القرآن نزل علىٰ قلب رسول الله بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، والحديث القدسيُّ منه ما نزل معناه بواسطة جبريل عليه السلام، ومنه ما كان إلهاماً أو رؤيا منام.

(ب) القرآن متعبَّد بتلاوته، والحديث القدسيُّ ليس متعبّداً بتلاوته.

(ج) القرآن منقول إلينا بالتواتر ومجموع بين دفَّتي المصحف، والحديث القدسيّ لم ينقل إلينا بالتواتر بل فيه الصحيح والضعيف والموضوع.

(د) تجب قراءة القرآن في الصلاة، ولا تصحُّ الصلاة بقراءة الحديث القدسيّ فيها.

(هـ) القرآن معجز والحديث القدسيُّ ليس بمعجز.

(و) القرآن محفوظ من التبديل والتغيير، والحديث القدسيُّ لا يُؤمَن عليه ذلك.

(ز) القرآن لا يقرؤه جُنُب ولا حائض، ولا يمسُّه إلاَّ طاهر، بينما الحديث القدسيُّ لا يجب فيه ذلك.

(ح) القرآن تُسمّىٰ مقاطعُه وجمله آياتٍ وسوراً، والحديث القدسيّ لا يُطلَق عليه ذلك.

(ط) القرآن يكفر جاحده والهازىء به، والحديث القدسيُّ لا يكفر منكره بل يفسُق إن صحَّ وروده، إلاَّ ما ثبت تواتُرُه إن وُجِد.

(ي) يحرم تلاوة القرآن بالمعنىٰ، وأمّا الحديث القُدِسيّ فيجوز قراءتُه بالمعنىٰ.

(ك) إنَّ كلَّ حرف من القرآن يُثاب قارئه بعشر حسنات، والحديث القُدْسيُّ ليس كذلك.

(ل) يمتنع بيع القرآن في رواية عند أحمد، ويكره بيعه عند الشافعيِّ، والحديث القدسيُّ ليس كذلك.

ثانياً: الفَرْق بين الحديث القدسيِّ والحديث النبويِّ:

(أ) الحديث القدسيُّ معناه من الله ولفظه من رسول الله ﷺ، والحديث النبويُّ معناه ولفظه من رسول الله ﷺ.

(ب) الحديث القدسيُّ يقول فيه رسول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ، والحديث النبويّ لا يقول فيه ذلك.

(ج) موضوع الأحاديث القدسيّة يكون غالباً فيما يتعلّق بذات الله وصفاته، بينما الأحاديث النبويّة تكون أعمَّ من ذلك، فهي منها ما يتحدَّث عن الذات الإلٰهيَّة وصفاتها، ومنها ما يتحدَّث عن الأحكام والأخبار والآداب وغير ذلك.

(د) الحديث القدسيُّ ظنِّي الورود، وأمّا الحديث غير القدسيُّ فمنه ما هو ظنِّيُّ الورود ومنه ما هو قطعيّ الورود.

* * *

وسبب تسمية هذا الضرب من الأحاديث بالقدسيِّ، أنَّ أكثره وارد في تقديس الذات الإلٰهيَّة وصفاتها العليَّة، وهي مُضافة إلىٰ الله تعالىٰ، فاستحقَّت أن تُوصَف بهذا الوصف تكريماً وتعظيماً. لأنَّ القدس معناه: الطهر، والتقديس: التطهير والتنزيه، والمقدَّس: المطهَّر، والقُدّوس من أسمائه سبحانه، ويعني: المنزَّه عن كلِّ وصف يُدرِكه حسٌّ، أو يتصوّره خيال، أو يسبِق إليه وَهْم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير. فكلُّ ما خطر في بالك، الله خلاف ذلك.

فكانت هذه التسمية أليق بهذا الضرب من الأحاديث النبويّة الشريفة.

وذهب بعضهم إلىٰ أنّها سُمِّيت بذلك لإضافتها إلىٰ الله تعالىٰ دون النَّظر إلىٰ معانيها.

ولقد اعتنىٰ بجمع هذه الأحاديث القدسيّة وتبويبها ضمن مصنّفاتٍ وكُتُبٍ خاصَّة بها عدد كبير من العلماء، نذكر فيما يلي أهمَّهم مرتَّبين حسب سنوات الوفاة:

زاهر بن طاهر النيسابوريّ (ت ٥٣٣هـ).

علي بن المفضَّل المقدسيّ (ت ٦١١هـ).

محمد بن علي بن محمد ابن العربيّ (ت ٦٣٨هـ)، واشتمل كتابُه علىٰ مائة حديث وواحد (وهو مطبوع).

محمد بن عبد الواحد المقدسيّ (ت ٦٤٣هـ).

علي بن بلبان المقدسيّ (ت ٦٨٤هـ). وسُمِّي كتابه: «المقاصد السَّنِيَّة في الأحاديث الإلـٰهيَّة» مطبوع.

عبد الرؤوف بن عليّ المناوي (ت ١٠٣٥هـ)، واسم كتابه «الإتحافات السَّنِيَّة في الأحاديث القدسية» مطبوع.

عبد الغني النابلسيّ (ت ١١٤٣هـ). مطبوع.

محمد بن محمود المدنيّ (ت ١٢٠٠هـ)، واسم كتابه «الإتحافات السَّنِيَّة في الأحاديث القدسيَّة» وهو مطبوع، وقد جمع فيه (٨٦٤) حديثاً قُدسياً فيها الصحيح والضعيف والمنكر والموضوع.

وقام المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلاميَّة في القاهرة بجمع (٤٠٠) حديثٍ قُدسيٍّ من الكُتُب الستَّة وموطَّأ الإمام مالك مرتَّبةً حسب الموضوعات مع شروحٍ مستفادةٍ من شرحِ العلاَّمةِ القَسْطلانيِّ لصحيح البخاريّ وشرح النوويِّ رحمه الله تعالىٰ لصحيح مسلم، ومن كتب التفسير واللغة.

وزُوِّد الكتاب بمقدِّماتٍ في بيان معنىٰ الحديث القدسيِّ وأقوال العلماء

في الفرق بين القرآن والحديث القُدسيِّ وبنُبَذٍ من التعريف بأصحاب الكُتُب التي أُخِذت منها هذه الأحاديث القدسيَّة الأربعمِائة، وأُخرِج هذا الكتاب في جُزْأَين، وكانت طبعته الثانية في سنة ١٤٠٨هـ.

وممَّن اعتنىٰ بجمع الحديث القدسيِّ من صَفْوَة مصادره الأستاذ يوسف بديوي الذي أصدر كتاباً اشتمل علىٰ (٣٩٨) حديثاً قُدْسيّاً، اعتنىٰ بتخريجها مع شروحٍ لطيفة لكلٍّ منها، وبوَّبها في إحدىٰ وأربعين باباً مرتَّبةً علىٰ حسب المواضيع. وتمَّت الطبعة الأولىٰ لكتابه المذكور سنة ١٤١١هـ.

وأمَّا رسالة **«الأحاديث القُدسيَّة الأربعينيَّة»** التي تقع هذه المقدِّمة بين يدي شرحها وترتيبها، فهي من تأليف الإمام المحدِّث العلّامة عليّ بن محمد الشَّهير بـ مُلَّا عليّ القاري المتوفّىٰ سنة ١٠١٤هـ.

ولقد تضمَّنت رسالتُه هذه أربعين حديثاً قُدسيّاً اصطفىٰ معظمها من الصحيح، ولكن لم تخلُ من ضعيف، وتسرَّب إليها حديثان؛ ذهب ابن قيِّم الجوزيَّة إلىٰ القول بوضع أحدهما، وأنَّه من الإسرائيليّات، وهو: «قال الله تعالىٰ: مَن لم يرضَ بقضائي، ولم يصبر علىٰ بلائي، فليلتمس ربّاً سوائي».

وذهب الإمام السيوطيُّ إلىٰ القول بوضع الآخر، وهو: «قال اللَّـهُ تعالىٰ لعيسَىٰ: يا عِيسىٰ، إنِّي باعثٌ مِن بعدِكَ أُمَّةً إن أصابَهم ما يُحِبُّون حَمِدوا، وشكروا، وإِنْ أصابهم ما يكرهون صَبَروا واحتسَبُوا، ولا حِلْم ولا عِلْم. قالَ: يا ربِّ، كيف يكونُ هذا لَهُم، ولا حِلْمَ ولا عِلْمَ؟ قال: أُعطيهم مِن حِلْمي وعِلْمي».

وزوَّد العلّامة القاري رحمه الله تعالىٰ هذه الرِّسالة اللطيفة بمقدِّمةٍ مُوجزة دقيقة الأفكار نفيسة المعاني، وزُيِّنت حواشي طبعتها المتوفِّرة لديَّ

بشروح جميلة وتوضيحات نافعة لا يقوم دليل علىٰ أنَّها من شرح العلاّمة القاري، ولا دليل علىٰ نَفْي ذلك.

وقُمتُ بعنونة أحاديث هذه الرسالة وضبطها بالشَّكل حديثاً حديثاً، وشَرْحها بتوسُّع مع المحافظة علىٰ شروح الأصل وتوضيحاته محدِّداً زياداتي عليها بين معكوفتين، واعتنيت في شَرْحي باللُّغة العربيّة وتصوّرات العقيدة الإسلاميَّة والمعاني التربويّة وبيان بعض الأحكام والتوضيحات العلميَّة المعاصرة.

وزوَّدت شروحي بأدلَّة قرآنيَّةٍ وحديثيَّةٍ أشرت في الحاشية إلىٰ مصادر تخريجها وأرقام الآيات المستشهد بها وأسماء سورها. وتوخَّيت في هذا الشرح المستفيض أحياناً أن أُقدِّم للقارىء وطالب العلم فوائد ومعاني تمسُّ الحاجة إليها في ميدان العقيدة والأخلاق ومعارف الإسلام.

ورجوت أن تخرج هذه الرسالة في ثوب قشيب وحلية جديدة وطراز يستميل القارئ، ويُعجب الباحث، وينفع الدارس. وسمَّيتها بشروحها الزائدة «الروضة البهيَّة، في شرح الأحاديث القدسيَّة الأربعينيَّة»..

واللّٰهَ تعالىٰ أسأل أن يجعل في هذا الكتاب نَفْعاً للقارىء، وهدايةً للحائر، ومغفرة للشارح، ومثوبة للناشر، ورحمة تتنزَّل شآبيبها علىٰ مؤلِّفه وجامعه العلاَّمة القاري رحمه الله تعالىٰ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه

نذير محمد مكتبي

الإمام مُلاّ علي القاري (رحمه الله تعالىٰ)
«موجز عن حياته»

اسمه ونسبه ولقبه:

هو الإمام العلاَّمة الحافظ القارىء الجامع الفقيه الحنفيُّ الكبير المحدِّث الشيخ نور الدِّين أبو الحسن علي بن سلطان محمد القاري الهرويُّ ثمَّ المكِّي المعروف بـ «مُلاّ علي القاري».

واشتُهِر بالقاري، لأنَّه كان حاذقاً في علم القراءات. قال الشيخ محمد عبد الحليم النعمانيّ في ترجمته: قرأ القرآن العظيم بمكَّة المكرَّمة علىٰ القُرّاء الأجلّاء، وأتقن الحفظ أبدع إتقان، وحفظ الشاطبيَّة، وقرأ السبعة من طريقها، وأتقن القراءات بوجوهها، وتلا ورتَّل القرآن العظيم أحسن ترتيل حتىٰ اشتُهر بالقاري. اهـ.

مولده ونشأته:

وُلِد بهراة مدينة مشهورة في بلاد خُراسان (أفغانستان حالياً)، وإليها نُسِب، وتعلَّم فيها القرآن الكريم، وحفظه عن ظهر قلب، وأخذ مبادىٰء العلوم من علمائها. حيث كانت هراة مهداً للثقافة والعلم والحضارة الإسلاميَّة في عهد التيموريّين.

ثمَّ رحل إلىٰ مكَّة المكرَّمة بعد أن نهل من معارف علماء بلده وعلومهم شيئاً كثيراً، وجاور فيها يتلقَّىٰ عن علمائها ويأوي إلىٰ مجالس فقهائها ومحدِّثيها حتىٰ أصبح من علماء الأُمَّة الكبار الذي جمع فأوعىٰ من مختلف علوم الشريعة الإسلاميَّة، فغدا مورداً ثرًّا من موارد العلم والمعرفة.

بعض أحواله ومظاهر عيشه:

كان رحمه الله متعفّفاً، يأكل من عمل يده، وكان قد أجاد الكتابة والخطَّ، وجعله مُكتَسَبه. قال الشيخ عثمان العريان في ترجمة مُلاّ علي القاري: وما كان يأكل إلاَّ من عمل يده، وكان له خطٌّ من عجائب الدنيا، وكان يكتب في كلّ عام مصحفاً وعليه طُرَرٌ من القراءات والتفاسير، ويكفيه في القوت من العام إلىٰ العام. اهـ.

وقيل: إنَّه كان يكتب مصحفين في السَّنة، ويبيعهما، ويتصدَّق بثمن واحد إلىٰ فقراء البيت، ويتعيَّش بالآخر.

وكان رحمه الله تعالىٰ زاهداً عفيفاً راضياً بالكفاف كثير العبادة والتقوىٰ والورع، أعرض عن مجالس الحكّام والعظماء، وكفَّ نفسه عن موائدهم وأيديهم حتّىٰ ألَّف رسالةً سمّاها: «تبعيد العلماء عن تقريب الأمراء».

وكان ملازماً لطريقة السلف من العلماء: يجهر بالحقِّ ولا يخشىٰ في الله لومة لائم، ويواجه الحُكّام، وينهاهم عن الظلم، ويأمرهم بالعدل والتقوىٰ، وكان يُنكر علىٰ أهل البدع بدعهم، ويحارب المنكرات، وينبِّه العامَّة، ويُحذِّرهم من مخاطر الانحراف عن منهج الله، ويأمر العلماء بالحفاظ علىٰ الدِّين وصفاء الشريعة الإسلاميَّة.

شيوخه وتلامذتُه:

تلقّىٰ الإمام العلاَّمة مُلاّ علي القاري علوم الشريعة الإسلاميّة ومعارفها عن عدد كبير من العلماء الجهابذة، وخاصَّةً في مرحلة مجاورته لبيت الله الحرام، حيث مكّنه نزوله في مكّة ومُكْثُه الطويل فيها من أن يلتقي عدداً لا يُحصىٰ من أساطين العلم ومشايخ الإسلام الكبار. ومن أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم، وتتلمذ علىٰ أيديهم، ونهل من مواردهم الغزيرة:

ابن حجر الهيتميّ، وعليّ المُتَّقي الهنديُّ، ومِيْركَلاَن، وعطيّة السُّلَميُّ، وعبد الله السِّنْديُّ، وقطب الدِّين المكِّي، وأحمد بن بدر الدِّين المصريُّ، ومحمد بن أبي الحسن البَكريُّ، وسنان الدِّين الأماسيّ، والسيِّد زكريّا الحسنيّ.

وتتلمذ علىٰ يديه خلق كثير منهم الإمام عبد القادر الطبريُّ، وعبد الرَّحمن المُرشِدِيُّ، والشيخ محمد بن فرُّوخ المُورَوِيّ، والسيِّد معظم الحسينيُّ البَلْخيّ، وسليمان بن صفي الدِّين اليمانيّ.

مُؤلَّفاته وتصانيفه:

كان الإمام العلاّمة مُلاّ علي القاري واسع الثقافة غزير المعرفة، طرق مختلف أبواب العلم، وكان في كلٍّ منها الفارس المجلّي، وتعدَّدت الأقوال في إحصاء عدد كتبه، فجاء عن حفيده: أنَّها بلغت ثلاثمائة مؤلَّف، وذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربيّ: أنَّها بلغت (١٨٢) مؤلّفاً، وذكر بعضهم أنَّها بلغت (١٠٧) مؤلْفاتٍ، وبلغت عند بعضهم الآخر (١٣٤) مؤلَّفاً. وصوَّب الأستاذ خليل إبراهيم قوتلاي في كتابه «الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث»: أنَّها بلغت (١٤٨) مؤلَّفاً.

ونذكر منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر :

١ ــ في التوحيد: «تتميم المقاصد وتكميل العقائد»، و «شرح الفقه الأكبر».

٢ ــ في الفقه: «حاشية علىٰ فتح القدير»، و «لسان الاهتداء في الاقتداء».

٣ ــ في المناسك: «أنوار الحُجَج في أسرار الحِجج»، و «بداية السالك في نهاية المسالك».

٤ ــ في الفرائض: «فيض الفائض في شرح روض الرائض في مسائل الفرائِض».

٥ ــ في التفسير: «أنوار القرآن وأسرار الفُرقان»، و «الجَمالين علىٰ الجلالَين».

٦ ــ في القراءات والتجويد: «شرح الشاطبيَّة»، و «الفيض السماويّ في تخريج قراءات البيضاويّ».

٧ ــ في السيرة النبويَّة: «الدُّرَّة المضيئة في الزيارة المصطفويَّة الرضيَّة»، و «المورد الرويّ في المولد النبويّ».

٨ ــ في الأدعية والأذكار: «الحِزب الأعظم والوِرْد الأفخم».

٩ ــ في التراجم: «الأثمار الجنيَّة في أسماء الحنفيَّة»، و «المعدِن العَدَنيّ في فضل أويس القرنيّ»، و «مناقب الإمام الأعظم وأصحابه».

١٠ ــ في اللُّغة: «الناموس في تلخيص القاموس».

١١ ــ في النحو: «شرح مغني اللبيب عن كُتُب الأعاريب».

١٢ ــ في المواعظ والرقائق: «تحفة الخطيب وموعظة الحبيب»، و «شرح الرسالة القشيريَّة»، و «شرح عين العلم وزين الحلم».

١٣ ــ في علوم الحديث النبويّ الشريف: وله باع طويل في التأليف فيه، وقد أُحصي له كُتُب كثيرة في مختلف علوم الحديث منها: «شرح نُخبة الفِكَر في مصطلح الحديث»، و «الموضوعات الكبرىٰ»، و «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي»، و «شرح مسند الإمام أبي حنيفة»، و «شرح صحيح مسلم»، و «شرح الجامع الصغير للسيوطيّ».

وله رسائل قيِّمة في الأربعينيّات منها: «المبين المعين لفهم الأربعين»، و «الأحاديث القدسيَّة الأربعينيَّة»، و «خفض الجَناح ورفع الجُناح بأربعين حديثاً في النِّكاح»، و «أربعون حديثاً في فضل القرآن».

أقوال العلماء فيه وثناؤهم عليه:

وصفه عبد الملك العصاميّ في «سِمْط النُّجوم» بقوله:

الجامع للعلوم العقليّة والنَّقْليّة والمتضلِّع من السنَّة النبويَّة أحد جماهير الأعلام ومشاهير أولي الحفظ والأفهام. اهـ.

ووصفه الإمام عبد الحيّ اللكْنَويّ بقوله:

صاحب العلم الباهر والفضل الظاهر. اهـ.

ووصفه الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي بقوله:

المحدِّث الجليل والفاضل النبيل، فريد دهره ووحيد عصره.

وأقسم المحقِّق العلاّمة ابن عابدين: أنَّه كان مجدِّد زمانه.

وفاته:

اختلف في سنة وفاته علىٰ أقوالٍ أرجحها أنَّه تُوُفِّي سنة (١٠١٤هـ)، وحكىٰ بعضهم أنَّ علماء مصر صلَّوا عليه بالجامع الأزهر صلاة الغائب في جمع غفير من المصلِّين يزيد علىٰ أربعة آلاف إنسان.



تحقيق القول في رسالة
«الأحاديث القدسيّة الأربعينيّة»

نُسَخ الرسالة المخطوطة والمطبوعة:

أنقل هنا ما ذكره الأستاذ خليل إبراهيم قوتلاي في كتابه المصنَّف في حياة الإمام علي القاري وأثره في علم الحديث حيث أورد في بيان النسخ المخطوطة للرسالة ما نصُّه:

يُوجد منها نسخة مخطوطة في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، بالمدينة المنوّرة، ضمن مجموع رقم ٨٥ الرسالة ٤٧ من المجموع، وهي تتكوَّن من (٥) أوراق.

ويُوجد منها نُسَخ مخطوطة عديدة في مكتبات اسطنبول، حاجي بشير آغا: ١٦/٦٥١، حاجي محمود أفندي ٣/٥٣٦، رئيس الكتاب ٥/١٢٠١، أسعد أفندي ١/٣٥٧٣ داماد إبراهيم باشا ٢٨/٢٩٧، حميديَّة: ٢/٢٠٠، ٥/١٤٣٩، عاشر أفندي ٥/٤٠٩، فاتح ٧/٥٣٣٦.

وذكر بروكلمان وجود عدَّة نُسَخ مخطوطة منها في المكتبات التالية: برلين ١٥٢٣، ميونخ ٨٨٦، القاهرة (أول) ١/٢٦٣، القاهرة: ٢٦/٧، ١٣٥.

وطُبعت هذه الرسالة في مطبعة عارف أفندي بإسطنبول في ١٣٢٤هـ بعنوان: «الأحاديث القدسيّة الأربعينيّة، للمُلاّ علي القاري»، كما طُبعت في ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م في حلب. اهـ.

أقول: ولقد وجدت في مكتبتي نسخةً من طبعة عارف أفندي بخطٍّ عثمان نـوري يتَألَّف من خمس عشرة ورقـة، وعـلىٰ حواشيها شروح موجزة لبعض ألفاظ الأحاديث وجُملها، ولم يُذكَر اسم شارحها، وفيها فوائد قديرة ومغانم علميَّة كثيرة.

منهج المؤلِّف في الرسالة:

أورد المؤلِّف في رسالته أربعين حديثاً قدسيّاً اختار معظمها من الصحيح والحسن. وكان أحياناً يذكر درجة الحديث وأحياناً أُخرىٰ لا يذكرها؛ ففي الحديث التاسع قال: «رواه الطبرانيّ، والحاكم بسند صحيح. وفي الحديث الثامن قال: «رواه رَزين» ولم يذكر درجة الحديث.

وكان يقتصر من الحديث علىٰ ذكر الرّاوي من الصحابة ومصدر تخريجه. وكان يذكر أحياناً معظم مصادر تخريج الحديث، وأحياناً أخرىٰ يقتصر علىٰ بعضها؛ ففي الحـديث الثالث والثلاثين قـال: «رواه أحـمـد، والترمـذيّ، والنَّسائيّ، وابن ماجه، والحاكم». وفي الحديث الثاني عشر قال: «رواه البخاريّ ومسلم»، ولم يذكر بقيَّة مصادر التخريج حيث خرَّجه أيضاً أبو داود والترمذيُّ والنَّسائيّ ومالك.

وأورد حديثين ذهبَ ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله تعالىٰ إلىٰ القول بوضع الأوّل، وهو الحديث الحادي عشر، وذهب الجلال السيوطيّ رحمه الله تعالىٰ إلىٰ القول بوضع الثاني، وهو الحديث الثامن والعشرون.

وذكر من الضعيف عدَّة أحاديث صرَّح بضعف واحد منها فقط، وهو الحديث الحادي عشر، فقال: «رواه الطبرانيُّ بسندٍ ضعيف»، ووسم بقيَّتها بالصحَّة أو الحسن رغم ضعفها؛ من ذلك الحديث الرابع والعشرون حيث قال فيه: «رواه أحمد بسند حسن»، وهو ضعيف كما ذكر السُّيوطيُّ في «الجامع الصغير». والحديث السادس والعشرون حيث قال: «رواه أحمد بسند صحيح والنسائيّ»، وهو ضعيف كما ذكر السّيوطيُّ في «الجامع الصغير».

وكان أحياناً يورد بعض الحديث لا كامله كما في الحديث الثاني عشر حيث أورد منه: «قال الله تعالىٰ: كلُّ عمل ابن آدم له إلاَّ الصيام فإنَّه لي وأنا أجزي به»، وتتمَّته كما في صحيح مسلم: «والصيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث يومئذٍ، ولا يسْخَب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقُل: إنِّي امرؤ صائم، والذي نَفْسُ محمد بيده لخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من رِيح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرِح بفِطْره، وإذا لقي ربَّه فرِح بصومه».

وكان إذا أورد الحديث، وذكر عدداً من أئمَّة تخريجه لم يُشِر إلىٰ لفظ أيٍّ منهم كان ذلك الحديث؛ ففي الحديث التاسع والثلاثون قال: «رواه البخاريُّ ومسلم»، وذكره بلفظ الإمام البخاريّ دون أن يشير بقوله: «واللَّفظ للبخاريّ».





الجُزْءُ الأَوَّلُ



مقـدّمة المؤلف

بسم اللّٰه الرَّحمنِ الرحيم. الحمد للّٰهِ العليِّ العظيمِ والبَرِّ الكَريم، والصلاةُ والسلامُ الأَتمّانِ الأَكْملانِ علىٰ سيِّدِ ولدِ عَدْنانَ وعلىٰ آلهِ وأصحابهِ حَمَلةِ عُلومِه وآدابِه، وعلىٰ التابعين وأتباعِهم إلىٰ يوم الدِّين.

أمّا بَعْدُ:

فقد سنَح في خاطِرِ المفتَقِر إلىٰ رحمةِ ربِّه الباري عليِّ بنِ سُلطان محمدٍ القارِي أَنْ أجمع مِن الأحاديثِ القُدسيَّةِ والكلماتِ الأُنْسيَّة أربعينَ حديثاً يرويهِ صدرُ الرُّواةِ وبدرُ الثّقاتِ عليه أفْضلُ الصلواتِ وأكملُ التحيّاتِ عن اللّٰهِ تباركَ وتعالىٰ، تارةً بواسطة جبريلَ عليه الصلاة والسلام، وتارةً بالوَحْي والإلْهام والمنامِ، مُفوَّضاً إليه التّعبير بأيِّ عبارةٍ شاءَ مِن أنواع الكلامِ.

وهي تُغايرُ القُرآنَ الحميدَ والفرقانَ المجيدَ بأَنَّ نزولَه لا يكون إلاَّ بواسطةِ الرُّوح الأمينِ، ويكون مُقيّداً باللَّفظ المُنزَّلِ من اللَّوحِ المحفوظِ علىٰ وَجْهِ التَّعْيينِ، ثمَّ يكون نَقْلُه مُتواتراً قَطْعيّاً في كُلِّ طَبقةٍ وعصرٍ وحينٍ.

ويتفرَّع عليه فروعٌ كثيرةٌ عند العلماء بها شَهيرة:

منها عدَمُ صِحَّة الصلاة بقراءة الأحاديث القدسيَّة.

ومنها عدَمُ حُرْمة مَسِّها وقراءتها للجُنُب والحائض والنُّفساءِ.

ومنها عدَمُ كُفْرِ جاحدها.

ومنها عدَمُ تعلُّقَ الإعجازِ بها.

رجاء أَنْ أكونَ في الدُّنيا داخلاً تحت شرطيَّةِ:

«مَنْ حَفِظ[1] علىٰ أُمَّتي أربعين حديثاً» مِن السُّنَّة، وفي الآخرة، أسألُكَ في جَزاءِ: «كنتُ له شهيداً وشَفِيعاً يوم القيامة».



(١) قوله: «مَنْ حَفِظ...»، معنىٰ الحِفْظ هنا أَنْ ينقلها إلىٰ المسلمين وإنْ لم يحفَظْها، ولا عرف معناها، هذا حقيقة معناه وبه يحصل انتفاع المسلمين، لا بحفظ ما لا ينقله إليهم، والله أعلم بالصَّواب.

الحديثُ الأوَّل

قَسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي

عن أبـي هُرَيْرةَ رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ قَالَ:

«قَالَ اللَّـٰهُ تَعَالىٰ: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْني وبينَ عَبْدي نِصْفَيْن، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ؛ فإِذا قَالَ العَبْدُ: «الحَمْدُ للَّـٰهِ ربِّ العَالَمِينَ»، قالَ اللَّـٰهُ: حَمِدَني عَبْدِي، فإِذا قَالَ: «الرَّحمٰنِ الرَّحِيم»، قَالَ اللَّـٰهُ: أَثْنَىٰ عليَّ عَبْدِي، فإِذا قَالَ: مالِكِ يَوْم الدِّينِ»، قال: مجَّدَني عَبْدِي، فإِذا قَالَ: «إِيَّاكَ نَعْبُد وإِيَّاكَ نَسْتَعينُ»، قَالَ: هٰذا بَيْني وبَيْنَ عَبْدِي ولعَبْدي ما سَأَلَ، فإِذا قَالَ: «إِهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ، صِراطَ الَّذين أنعمتَ عَليهمْ غيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ ولا الضَّالِّينَ»، قال: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ».

[رواه أحمد وأصحابُ السِّتِّ ما عدا البُخاريَّ]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «قَسمتُ الصَّلاةَ»:

أي: قِراءتها.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»:

أي حيث اعترف بالعبوديَّة، وسألني أعطيتُه سؤاله.

[ودليله في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(١)، أي: إذا اعترفوا بعبوديَّتهم لي، وتوجَّهوا إليَّ بالسؤال أجبتُهم.

وفي قوله أيضاً: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢)، أي: عندما تعترفون بربوبيَّته وتُقِرُّون بعبوديَّته يستجيب لكم.

وأمّا من رفض الاعتراف بربوبيَّته، وتنكَّر لعبوديَّته وآثر سؤالَ غيره عليه، فلا يستحِقّ إجابةُ الدُّعاءِ لأنَّه أباه، وكيف ينتظر منه إجابة دعائه إذا لم يعترف له بالعُبُوديَّة، ولم يُقِرَّ له بالرُّبُوبيَّة؟!

ولا يُعتَرض عليه بقوله ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ المظلومِ وإنْ كانَ كافراً»(٣)، لأنَّ المظلوم الكافرَ إذا دعا الله كان معترفاً حالَ دعائه إياه بعبوديَّته، وإلاَّ لَما أقبل عليه، ولما توجَّه بظُلامته إليه].

قَوْلُهُ: «حَمِدَني عَبْدِي»:

أي: مجَّدني وأثنىٰ عليَّ بما أنا أهله.

قَوْلُهُ: «مجَّدني»:

أي: عظَّمني.



(١) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٣) رواه أحمد في المسند والضياء عن أنس.

الحديثُ الثاني

كذَّبني ابنُ آدم

عَنْ أبـي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: كَذَّبني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ لَهُ ذلِكَ، وشَتَمنِي ولم يَكُنْ لَهُ ذلِكَ؛ فَأمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّاي فقَوْله: «لَنْ يُعِيدَني كَمَا بَدَأَني»، ولَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إعادَتِهِ، وأَمَّا شَتْمُهُ إيَّايَ فَقَوْله: «اتَّخَذَ الله وَلداً»، وأَنا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ، ولَمْ أُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لِي كُفُواً أَحَدٌ».

[رواه البُخاريُّ]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «كذَّبني»:

أي: نَسَبَ إليَّ الكذب حيث أخبرته بأنِّي أُعيدُه يومَ القيامة، وهو يُنكر، ويُكذِّبني في ذلك الإخْبار.

وذلك واقع في غير عَبَدةِ الأوثانِ أيضاً، فإنَّ أكثر العرب الذين في البوادي ينكرون البعث، ويقولون: هذا من أكاذيب الفقهاء. [وهذا بسبب جهلهم وعدم إيمانهم كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن

﴿قَالُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾[1]. ولقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ هذا الضَّرْبِ من التكذيبِ الخاسِر في كتابه العزيز في مواطنَ كثيرةٍ نحو قوله سبحانه علىٰ لسان منكري البعث والنُّشور:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾[2].

وقوله علىٰ لسان كُفّار ثمود:

﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرًا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾[3].

وأخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال:

جاءَ العاصي بن وائل إلىٰ رسول الله ﷺ بعظمٍ حائلٍ ففتَّه، فقال: يا محمّد، أيُبعَث هذا بعدما أرمَّ؟

قال: «نَعَم، يبعث اللّٰهُ هذا، ثُمَّ يُميتك، ثُمَّ يُحييك، ثُمَّ يُدخلك نارَ جهنَّم».

قال: فنزلت هذه الآيات:

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾[4] إلىٰ آخر السورة.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٩.

(٣) سورة المؤمنون: الآيات ٣٤ ــ ٣٧.

(٤) سورة يسٓ: الآيات ٧٧ ــ ٧٩.

وأخرج ابن أبـي حاتم من طُرُقٍ عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزُّبَير والسُّدِّيّ نحوه، وسمُّوا الإنسان: أُبـيّ بن خلف].

قَوْلُهُ: «وَشَتَمَني»:

أي: وَصَفَنِي بالنقص.

[**قَوْلُهُ: «وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأَهْونَ عليّ من إعادَتِه»:**

أي: إذا آمن بأنّي خلقته أوَّل مرَّة وجب أن يؤمن بأنِّي قادر علىٰ إعادة خلقه من جديد، لأنَّ إعادة الخَلْق ــ في نظر العقلاءِ ــ أهونُ وأيسَرُ من بَدْئه. وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالىٰ في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[1]].

قَوْلُهُ: «الصَّمَد»:

والعرب تُسمِّي أشرافها الصَّمَد، قال أبو وائل: هو السيِّد الذي انتهىٰ سؤدَدُه، والسؤدَد هو المجد والشَّرف.

[قال الأزهريُّ: أمّا الله تعالىٰ فلا نهاية لسُؤدَدِه، لأنَّ سُؤدَده غير محدود.

وقالوا: الصَّمَد هو السيِّد المطاع الذي لا يُقضىٰ دونه أمر، ويُصْمَد إليه في الحوائج. وقيل في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: الدائم الباقي بعد فناء خلقه. وقيل: الصَّمَد الذي لا يَطْعَم، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾[2]، وقوله: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾[3].

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٣) سورة الذاريات: الآيتان ٥٧، ٥٨.

قَوْلُهُ: «كُفُواً أحد»:

الكُفء من المكافأَة وهي المساواة والمماثلة، أي: لا يساويه سبحانه شيءٌ في قوَّة وجوده ولا في منزلته وقَدْره، فلا شبيه له ولا نظير ولا مثيل في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. فهو كما قال عن نفسه:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[1]].

❑ ❑ ❑

(١) سورة الشورىٰ: الآية ١١.

الحديثُ الثالث

يُؤذِيني ابنُ آدمَ

عَنْ أبـي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّـٰهِ ﷺ:

«قَالَ اللّـٰهُ تَعَالىٰ: يُؤْذِيني ابنُ آدَمَ؛ يسُبُّ الدَّهْرَ، وأَنا الدَّهْرُ بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهارَ».

[رواه البُخاريُّ، وأحمد]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «يُؤْذِيني ابنُ آدَمَ»:

[الإِيذاء هو الإِضْرار، والأَذىٰ: هو الضَّرَر الذي يُصيب المخلوق، ويستحيل هذا علىٰ الله تعالىٰ لِكونه نَقْصاً، والله سبحانه منزَّه عن كلِّ نقص، ويجب له كلُّ كمال بل يجب له الكمال المُطلَق، فلا يليق به تعالىٰ أن يصيبه نفعٌ أو ضرٌّ لاستحالتهما عليه، وهذا ما أكَّده قوله سبحانه في الحديث القِدسي: «يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نَفْعي فتنفعوني»[1].

(١) رواه مسلم.

ففي الإصابة بالضُرِّ ضَعْف، وفي الإصابة بالنفع افتقار، وكلاهما نقصٌ، والنقص مستحيل عليه سبحانه ـ كما تقدَّم ـ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[1]، فأصبح الواجب تأويلُه بما يليق به سبحانه وتعالىٰ، ويمكننا أن نقول في معناه: أَنْ ينسُبُ إليَّ ما لا يليق بـي، أو نقول:] أَنْ يفعل معي ما هو سَبَبٌ في الغضب [ونُزولِ العقابِ فيه].

قَوْلُهُ: «وَأنا الدَّهْرُ»:

أي: وأنا خالق الدهر ومدبِّره [فهو علىٰ تقدير حذفِ مُضافٍ وإقامة المُضاف إليه مقامَه نحو قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[2]، أي: الله خالقُ نورِالسماوات والأرض، أو: (الله ربُّ نورِ. . .)، وهذا أحد المعاني الواردة في تفسير هذه الآية.

قَوْلُهُ: «أُقلِّب اللَّيلَ والنَّهارَ»:

تقليب الشيء تغييرُه وتحويلُه من حال إلىٰ حال، أي: (أحوِّل الظلام ضياءً والضياءَ ظلاماً).

قال تعالىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾﴾[3]. وفي الآية إشارةٌ إلىٰ دوران الأرض حول محورها، فيترتَّب علىٰ هذا الدوران أن يَتعرَّض بعض أجزائها لضوء الشمس فيحدث النّهار، وما لم يتعرَّض منها لضوء الشمس يَحدث فيه الليل.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٥.
(٢) سورة النور: الآية ٣٥.
(٣) سورة النور: الآية ٤٤.

وذكر الراغب الأصفهانيُّ في «المفردات» معنًى آخر لمادَّةِ قلَّب، فقال: (وتقليب الأُمور تدبيرُها والنظر فيها)، ومن تدبيره سبحانه في خلقه، خلقُ اللَّيل والنهار وضَبْط حركتِهما بنظامٍ مُتقَن بديع وتصريفهما بما تقوم به حياة الخلق، ويصلح علىٰ هديه معاشُهم. قال الله تعالىٰ:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾[1]].

❑ ❑ ❑

(١) سورة الرعد: الآية ٢.

الحديثُ الرابـع

مرضتُ ولم تَعُدْني

عَنْ أبـي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّـهَ تَعَالىٰ يقولُ يَوْمَ القِيامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْني، قَالَ: يا رَبُّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ ربُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَما عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَه لَوَجَدْتَني عِنْدَهُ؟

يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمتُكَ فلَمْ تُطْعِمْني، قَالَ: يا رَبُّ، كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: أَما عَلِمْتَ أَنَّه اِسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أنَّك لو أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلك عِنْدِي؟

يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يا رَبُّ كَيْفَ أَسْقيكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لو سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟».

[رواه مُسْلِم]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «مَرِضْتُ»:

أي: مرِضَ عَبْدي الكامل [المتحقِّق بالعبوديَّة الخالصة لي].

قال المناويُّ: أضاف المرضَ سبحانه إليه والمراد العبد تشريفاً له [ــ أي للعبدِ ــ ، لأنَّ المَـرَضَ نَقْـصٌ، والنَّقْـص مستحيـلٌ عليـه سبحـانـه، لِتنزُّهِه عنه ووجوبِ الكمالِ المطلق لهُ جلَّ وعزَّ.

والمرض إذا نزل بالمؤمِن فصَبَر، ولم يتضجَّر، كان تصفيةً له من ذنوبه وترقّياً له في درجات القُرب من ربِّه سبحانه، لذلك قالوا: مرض المؤمنِ تصفيةٌ وترقيةٌ. وفي الحديث: «ما يزال البلاء بالمُؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِهِ وولدِهِ ومالِهِ حتىٰ يلقىٰ اللّٰهَ تعالىٰ وما عليهِ خَطيئةٌ»[1]، وفي الحديث أيضاً: «ما يُصيب المُسْلِمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أَذَىً ولا غمٍّ، حتّىٰ الشوكةُ يُشاكُها إلاَّ كَفَّر اللّٰهُ بها مِنْ خطاياه»[2].

والعبد المؤمن إذا مرض استشعر شِدَّةَ افتقاره إلىٰ الله تعالىٰ وغايةَ عجزه، فزاده ذلك خضوعاً لربِّه عزَّ وجلَّ وإقبالاً عليه.

قَوْلُهُ: «عَبْدِي»:

الإضافة هنا إضافةُ تشريف].

قَوْلُهُ: «لَوَجَدْتَنِي»:

أي: وجدت ثوابي وكرامتي [، لا ذاتي، لأنَّ ذاتَ اللّٰهِ لا يحدُّها زمان ولا مكان، ومَن قال بجواز تقيُّد الذاتِ الإلٰهيَّة بِالزّمان والمكان جوَّز عليها التحيُّزِ والجِرميَّة وهما مستحيلان علىٰ الله تعالىٰ، لأنَّ إثباتهما له يقتضي مماثلته سبحانه للحوادث، والواجبُ له تعالىٰ مخالفته للحوادث بدليل النَّقْل والعَقْل؛ أمَّا دليل النقل فنحو قوله تعالىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ

---

(١) رواه التِّرمذيُّ، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) متَّفق عليه.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[1]، وقوله منكراً علىٰ المشركين اعتقادَهم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾[2]، فنفىٰ المماثلة بين الخالق والمخلوق.

وأمَّا دليل العقل فهو أنَّ كلَّ حادث متحيِّز والمتحيِّز إن كان منقسماً فهو الجسم وإن لم يكن منقسماً فهو الجوهر الفرد، وإذا نَفَيْنا عن ذاتِ الله تعالىٰ التحيُّز فقد دَلَلْنا علىٰ أنَّه تعالىٰ ليس بجسمٍ ولا جوهر فَرْد.

ودليل نفي التحيُّز عن ذاته سبحانه: أنَّه لو كان متحيِّزاً لكان مُتناهياً، لأنَّ كلَّ متحيِّز متناهٍ، وكلُّ متناهٍ حادث، ولمّا وجب الله تعالىٰ القِدَم استحالَ عليه سبقُ العدم (وهو الحدوث)، فدلَّ ذلك علىٰ استحالةِ كونه متحيِّزاً.

ودليل آخر يقول: لو كان الله تعالىٰ متحيِّزاً لكان محتاجاً إلىٰ الغير ومفتقراً إلىٰ مخصِّص يخصِّصه، وهذا مستحيل عليه سبحانه، لأنّ الافتقار إلىٰ الغير من صفات الحادث، والله تعالىٰ قائم بنفسه منزَّه عن الافتقار إلىٰ محلٍّ أو تخصيص مخصِّص، فدلَّ ذلك علىٰ استحالة الحدوثِ عليه، واقتضىٰ وجوبَ مخالفته للحوادث].

قَوْلُهُ: «لَوَجدتَ ذلكَ عِنْدي»:

لم يقل: لوجدتني عنده، كالذي قبله إشارةً إلىٰ أنَّ عيادة المريض أفضل من ذلك.



(١) سورة الشورىٰ: الآية ١١.

(٢) سورة النَّحل: الآية ١٧.

الحديثُ الخامس

الابـــتـــلاء

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عنه قَالَ: سَمِعتُ النَّبِـيَّ ﷺ يَقُولُ:

«قَالَ اللَّـهُ سُبْحَانَه وَتَعَالىٰ: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُما الجنَّةَ»، يُرِيدُ عَيْنَيْهِ.

[رواه أحمد، والبُخاريّ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ»]:

الابتـلاء: هـو الامتحـان والاختبـار، يُقـال: بـلاه الله بـلاءً وابتـلاه إذا امتحنه واختبره.

واختبـار الله تعـالىٰ للعبـاد تـارةً بـالمسـارِّ ليشكـروا وتـارةً بـالمضـارِّ ليصبروا، فصارت المِحْنَة والمِنْحَة جميعاً بلاءً، فالمحنة مقتضيةٌ للصبرِ والمِنْحـة مقتضيـة للشُّكـر، قـال تعـالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1].

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

وقالوا: القيام بحقوق الصَّبْر أَيسَرُ من القيام بحقُوق الشكر، فصارت المِنْحَة أعظمَ البلاءَيْن، وبهذا النَّظر قال عمر رضي الله عنه: بُلِينا بالضرّاء فصبرنا، وبُلِينا بالسَّرَّاءِ فلم نَصْبِر. والصَّبْر والشُّكر هما محض الإيمانُ].

قَوْلُهُ: «بحَبِيبَتَيْهِ»:

[يريد عينَيْه كما فسَّرهما آخر الحديث، وسمّاهما حبيبتين، لأنَّهما أحبُّ أعضاء الإنسان إليه لما يحصل له بفقدهما من الأسف علىٰ فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيُسَرُّ به، أو شرٍّ فيجتنبه، وبهما صلاح معاشِ الإنسان وجماله، فلهذا أوجب الشَّرْع في الجناية عليهما ديةً كاملة].

والمراد بقوله: «إذا ابتَلَيْتُ عَبْدي بحبيبتيه»، أي: بفقدهما.

[قَوْلُهُ: «فَصَبَرَ»:

الصَّبْر هو حبس النفس علىٰ ما تكره ابتغاء مرضاة الله، وقالوا: هو تلقِّي العَبْدِ ابتلاءَ اللّـهِ له بالرِّضا وتجنُّبُ التسخُّطِ والشكوىٰ. فمن تسخَّط، وأظهر الشكوىٰ من البلاء لم يكن صابراً.

والعبد المُبتَلىٰ إذا ذكر أنَّه عبد لمولاه، لم يُظهِر له شكواه، وكان راضياً بما قدَّره الله تعالىٰ وقضاه، ورأىٰ في الابتلاء إمّا دفعاً لمكروهٍ أو كفارةً لذنبٍ أو رفعاً لمنزلة].

قَوْلُهُ: «عَوَّضْتُهُ مِنْهُما الجَنَّةَ»:

أي: دخولها مع السابقين، وهذا أعظم العِوَض، [لأنَّ الالتذاذ بالبصر يفنىٰ بفناء الدنيا، والالتذاذ بالجنَّة باقٍ ببقائها. والإنسان يوم القيامة بعد الحسابِ ينتهي إلىٰ أحد مصيرَيْن إمّا إلىٰ الجنَّة وإمّا إلىٰ النار ولا ثالث لهما، وهذا ما أكَّده رسول الله ﷺ بقوله:

«إذا صار أهل الجنة إلىٰ الجنَّة وأهل النار إلىٰ النار، جيء بالموت حتىٰ يُجعَل بين الجنَّة والنار، فيذبح، ثمَّ ينادي منادٍ: يا أهل الجنَّة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنَّة فرحاً إلىٰ فرحهم، وأهل النار حُزْناً إلىٰ حزنهم»(١).

ويزيدُ اللّـٰهُ تعالىٰ العبد الصابر علىٰ البلاء من فضله بأَنْ يُدخله الجنَّة بغير حساب، فقد روىٰ ابن حِبّان والبيهقيُّ: لما نزلت الآية قوله تعالىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾(٢)، قال النبـيُّ ﷺ:

«اللّـٰهُمَّ زد أُمّتي»، فنزلت الآية قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾].



(١) أخرجه أحمد في المسند، ومُسلِم في صحيحه.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

الحديثُ السادس

ثمرة الصَّبْرِ علىٰ الابتلاء

عَنْ شدّادِ بنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عنه، سمعتُ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ يَقُولُ:

«إنَّ اللّٰـهَ عَـزَّ وجَـلَّ يَقُـولُ: إذا ابتَلَيْـتُ عَبْـداً مِـنْ عِبَـادِي مُـؤْمِنـاً فَحَمِدَني وصَبَرَ عَلىٰ ما ابتَلَيْتُه فإنَّه يَقُومُ مِنْ مَضْجعِهِ ذلِكَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الخَطَايَا، ويَقُولُ الرَّبُّ تَبارَكَ وَتَعَالىٰ لِلْحَفَظَةِ: إنِّي قَدْ قَيَّدْتُ عَبْدِي هـٰذَا، وابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لهُ ما كُنْتُمْ تُجْرونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ»[1].

[رواه أحمد]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «مُؤْمِناً»:

الإيمان: هو التصديق، والعبد المؤمن: هو العبد الصادق في عبوديَّته لله تبارك وتعالىٰ، المعتقد بحقِّ ربِّه سبحانه عليه. أمّا غير المؤمن لا يُتصَوَّر

---

(١) رواه أحمد، وأبو يعلىٰ، والطبراني في الكبير، وأبو نُعَيم في الحلية. وهو حديث حَسَن. ذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٦٨٦.

منه حمدٌ لمولاه، ولا صبرٌ على بلواه، لأنَّه منقطع عن ثواب الآخرة غارق في طلب الدنيا، فهو يفرح بملذّاتها ويجزع من مصائبها، يدخل تحت قوله سبحانه:

﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾[3].

قَوْلُهُ: «فَحَمِدَني»:

الحمد لله تعالىٰ: الثناء عليه بالفضيلة والجميل اللائق به سبحانه، وهو أخصُّ من المَدْح وأعمُّ من الشُّكر؛ أمَّا أنَّه أخصُّ من المدح، فلأنَّ المدح يُقال فيما يكون من الممدوح باختياره كالسخاء والعلم والنَّجْدة، وفيما لا يكون باختياره كجمال الوجه وطول القامة، والحمد لا يكون إلاَّ في الأوَّل، وبناءً علىٰ ذلك فإنَّ كلَّ حمدٍ مَدْح، وليس كلُّ مَدْحٍ حَمْداً.

وأمَّا أنَّه أعمُّ من الشُّكر، فلأنَّ الشُّكر لا يكون إلاَّ في مقابلة نعمة، والحمد يكون في مقابلة نعمةٍ أو لا، فكلُّ شكر حَمْد وليس كلُّ حَمْدٍ شُكراً.

ولمَّا كان المقام مقامَ ابتلاءٍ ناسَبَ أَنْ يُسمَّىٰ ثناءُ العبد المؤمن علىٰ الله فيه (حَمْداً).

---

(١) سورة المعارج: الآيات ١٩ ــ ٢١.

(٢) سورة الحجّ: الآية ١١.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٣.

قَوْلُهُ: «مِن مَضْجَعِهِ»:

الضَّجْع والضُّجوع: وَضْعُ الإنسانِ جنبَه بالأرض، وقيل: هو الاستلقاء والنَّوم. والمَضْجَع: كمَقْعد، موضع النوم، ومكان الاضطجاع، يُجمَع علىٰ: مضاجع، قال تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، أي: تترك مواضعَ اضطجاعِها. والمراد بالمَضْجَع في نصِّ الحديث: مكان الاضطجاع بسبب المرض، أو المرض نفسه، بدليل اسم الإشارة «ذلك» في قوله: «فإنَّه يقوم من مَضْجَعِه ذلك».

قَوْلُهُ: «كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»:

أي: لا ذنب عليه، لأنَّ القلم لا يجري علىٰ ابن آدم إلاَّ إذا بلغ الحُلُم لحديث: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن المُبتَلىٰ حتّىٰ يَبْرأ، وعن الصبيِّ حتّىٰ يكبَر»[1]. والإنسان أوّل ما يُولَد يكون طاهراً من الخطايا معافًى من الذنوب.

قَوْلُهُ: «لِلْحَفَظَةِ»:

أي: الملائكة التي تكتب علىٰ بني آدم أعمالهم، وتحفظ في سجلاّتها ما يكون منهم من خير ــ أو شرٍّ ــ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾[2]، وقال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾[3]، وجاء في الحديث: «إنَّ الله وكَّل بعبده المؤمن ملكَيْن يكتبان عملَه»[4]، فهما ملكان مَلَك عن يمين العبد يكتب الحسنات ومَلَك عن

(١) رواه أحمد في مسنده عن عائشة، وأبو داود والنسائيّ والبيهقيُّ.

(٢) سورة الانفطار: الآيات ١٠ ــ ١٢.

(٣) سورة ق: الآية ١٨.

(٤) رواه المروزي وأبو بكر الشافعيّ، وأبو الشيخ في العظمة والديلميُّ.

شماله يكتب السيِّئات، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾[1].

وكلٌّ منهما رقيب علىٰ الإنسان في أقواله وأفعاله، وعتيدٌ أي متهيِّىء ومُعَدٌّ لكتابة ما أُمِر بكتابته ممَّا كان من العبد من خير أو شرٍّ.

ومَلَك اليمين أمين علىٰ مَلَك الشِّمال، فقد أخرج الطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقيُّ عن أبـي أُمامة عن رسول الله ﷺ قال: «صاحب اليمين أمين علىٰ صاحب الشمال، وإذا عمل العبد حسنة كتب عشرَ أمثالها، وإذا عمل سيِّئة وأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين أمسك، فيُمسك ست ساعات أو سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيئاً، وإن لم يستغفر الله كتب عليه سيِّئة واحدة».

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: وقد اختَلف العلماء: هل يكتب الملَك كلَّ شيءٍ من الكلام، وهو قول الحسن وقتادة، أو إنَّما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما، علىٰ قولين، وظاهر الآية لعموم قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

وروىٰ الخطيب وابن عساكر عن مالك رحمه الله تعالىٰ أنَّه بلغه: إنَّ كلَّ شيء يُكتَب حتىٰ الأَنين في المرض].

قَوْلُهُ: «قَيَّدتُ عَبْدِي»:

أي: منعته عن عبادته ولولا ذلك لعبدني [فشبَّه المرض بالقيد الذي يُجعَل في رِجل الأسير فيمنعه من المَشْي].

---

(١) سورة ق: الآية ١٧.

قَوْلُهُ: «فأَجْرُوا له ما كُنتُم تُجرون له وهو صحيح»:

أي: اكتبوا له (ما كنتم تُجرون) أي تكتبون له.

[هذا من مزيد فَضْلِ الله تعالىٰ علىٰ عبده المؤمن وكرمه له، فقد أمر ملائكته الحفظة أن تكتب للعبد المؤمن في صحيفة حسناته الأعمالَ الصالحةَ التي كان يعملها في صحَّته، وأقعده عنها المرض، فلم يتمكَّن من متابعتها وفي نيَّته أن يعملها.

وجاء في رواية ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبـيَّ ﷺ قال: «ما مِن أحدٍ من المسلمين يُبتَلىٰ ببلاءٍ في جسده ــ أي بسبب مَرَضٍ أو كبر سنٍّ ــ إلَّا أمر الله تعالىٰ الحفظة فقال: اكتُبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيحٌ ما دام مشدوداً في وثاقي»[1].

وروىٰ الطبرانيُّ عن أبـي موسىٰ رضي الله عنه أنَّ النبـيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالىٰ يكتب للمريض أفضل ما كان يعمل في صحَّته ما دام في وثاقه ــ أي مرضه ــ وللمسافر أفضل ما كان يعمل في حاضره».

قال ابن حَجَر رحمه الله تعالىٰ: هذا الحديث وارد في حقِّ من كان يعمل طاعةً فمُنِـع منها، وكانت نيَّته ــ لولا المانع ــ أن يدوم عليها. اهـ.

ويُقوّي هذا المعنىٰ ما رواه النّسائيّ وابن ماجه بإسناد جيِّد عن أبـي الدَّرْداء يبلغ به النبـيَّ ﷺ قال:

«مَنْ أتىٰ فراشه وهو ينوي أَنْ يقوم يصلِّي من اللَّيل فغلبته عيناه حتىٰ أَصْبَحَ، كُتِبَ له ما نَوَىٰ، وكان نومُه صدقةً عليه من ربِّه».

---

(١) أخرجه أحمد والدارقطنيّ.

وأمّا الأعمال السيِّئة فلا تُكتب علىٰ العَبْد حال عروض المانع، إلاَّ إذا عملها، ولو حدَّثته نفسُه بفعلها، وهذا من كمال عدل الله سبحانه في عباده، فجاء في الصحيحين ــ واللفظ للبخاريّ ــ عن أبـي هريرة رضي الله عنه عن النبـيِّ ﷺ قال: «يقول الله تعالىٰ للملائكة: إذا أراد عبدي أَنْ يعمل سيِّئة فلا تكتبوها عليه حتىٰ يعملها، فإِنْ عملها فاكتبوها بمثلها، وإِنْ تركها من أجلي ــ أي مخافةً منِّي ــ فاكتبوها له حسنةً، وإِنْ أراد أَنْ يعمل حسنةً لم يعملها فاكتبوها له حسنةً، فإِنْ عملها فاكتبوها له عشرَ حسناتٍ إلىٰ سبعمائة ضِعْفٍ»].



الحديثُ السَّابِـع
المرض طهارةُ المؤمن مِن النَّار

عَنْ أبـي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

إِنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ عَادَ مَرِيضاً فقَالَ:

«أَبْشِر، فإنَّ اللَّـهَ تَعَالىٰ يقُولُ: هِيَ نَارِي، أُسَلِّطُها عَلىٰ عَبْدِي المُؤمِنِ في الدُّنْيَا لِتكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ»[1].

[رواه أحمد، وابنُ ماجَه، والبيهقي في «شُعب الإيمان»]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «أَبْشِرْ»:

أي افرَحْ وابتهِـجْ بالأجر والثواب، وما أعدَّ الله تعالىٰ لك في الجنَّة من نعيمٍ ومَنْزِلٍ كريم إِنْ صبرت ورضيت عن الله بما ابتلاك به.

وأَبْشَرتُ الرَّجلَ وبشَّرتُه وبَشَرتُه: أخبرته بسارٍّ بَسَطَ بَشَرةَ وجهه، وذلك أنَّ النَّفس إذا سُرَّت انتشر الدَّم فيها انتشارَ الماء في الشجر.

(١) رواه ابن ماجه في سننه باب الحمّىٰ ٢/ ١٨٢، ولفظه في آخره: «لتكون حَظَّه من النار في الآخرة». إسناده صحيح ورجاله ثقات.

ويُقال للخبر السارِّ: بِشارة وبُشْرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾[1]، وجاء في معنىٰ البُشْرىٰ في هذه الآية ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: أنَّ بُشْراهم في الدنيا ما بُشِّروا به من الثواب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وبشراهم في الآخرة الجنَّة.

ثانيها: قيل بُشْراهم في الدنيا الرُّؤْيا الصالحة يراها المؤمن في منامه أو تُرىٰ له، قال ﷺ: «انقطع الوَحْيُ ولم يَبْقَ إلاَّ المُبَشِّرات، وهي الرُّؤْيا الصالحة التي يراها المؤمن أو تُرىٰ له»[3].

ثالثها: قيل: معناه بُشراهم في الدنيا أنَّ الرجل منهم لا تخرج روحه من جسده حتّىٰ يرىٰ موضعَه من الجنَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[4].

والبِشارة إنْ أُطْلِقت لا تكون إلاَّ بالخير، وإنَّما تكون بالشرِّ إذا قُيِّدت كقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[5]، وقالوا: جَاء ذِكْر البِشْرِ في سِياق ذِكْر العذاب للتهكُّم.

قَوْلُهُ: «هِيَ ناري»:

وذلك لما يُصيب المريضَ مِن ارتفاع درجة حرارته بالحُمَّىٰ ونحوها، وقيل: لِما يجده من الألم.

---

(١) سورة يونس: الآية ٦٤.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٩.
(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والبيهقيّ والطبرانيّ بألفاظ متقاربة.
(٤) سورة فُصّلت: الآية ٣٠.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٢١.

قَوْلُهُ: «أُسَلِّطُها علىٰ عَبْدِي المُؤمِن في الدُّنْيا»:

التَّسْلِيطِ هو التمكين من القهر، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[2].

والأمراض جُنْد من جنود الله تعالىٰ يسلِّطها علىٰ من يشاء من عباده، فيقهرهم بها، فإذا نزل المرض بالمؤمن كان رحمة له، وذلك لما يترتَّب علىٰ صبره عليه وتسليمه فيه لله تعالىٰ من الأجر والثواب ومغفرة الذنوب بوعد الله تعالىٰ في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾[3]، وبوعده علىٰ لسان رسوله ﷺ في قوله: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُه أذًى شَوْكَةٌ فما فَوْقَها، إلاَّ حطَّ اللَّـهُ تعالىٰ بِهِ سَيِّئاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجرةُ ورَقَها»[4].

قَوْلُهُ: «لتكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ»:

الحَظُّ: النَّصيب، وهو هنا ما يستحقُّه من العذاب في النّار يومَ القيامة جزاءً وِفاقاً لما ارتكبه من الذُّنوب في الدنيا. فيجعل الله تعالىٰ المرضَ ونحوَه إذا أصاب المؤمن في الدنيا مقابل ذلك العذاب الأُخروي، فيُسقِطه عنه ما اجتنب الكبائر أو تاب منها توبةً نصوحاً].



---

(١) سورة النساء: الآية ٩٠.

(٢) سورة الحشر: الآية ٦.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٤) رواه البخاريّ ومسلِم.

الحديثُ الثامِن

مِنْ مَظاهِر مَغْفِرة اللّٰهِ تعالىٰ للعَبْدِ

عنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللّٰهِ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ الرَّبَّ سُبْحانَهُ وَتَعَالىٰ يَقُولُ: وَعِزَّتي وَجَلَالي لا أُخْرِجُ أَحَداً مِنَ الدُّنْيا أُرِيدُ أَنْ أَغفِرَ لَهُ حَتَّىٰ أَسْتَوْفيَ كلَّ خَطِيئةٍ في عُنُقِهِ بِسَقَمٍ في بَدَنِهِ وَإِقْتَارٍ في رِزْقِهِ».

[رواه رَزِينٌ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «وعِزَّتي وجَلالِي»]:

العِزَّة لها معنيان:

الأوَّل: القُوَّة والغَلَبة، وهي بهذا المعنىٰ ترجع إلىٰ صفة القُدرة.

والثاني: نَفاسَةُ القَدْرِ، وهي بهذا المعنىٰ ترجع إلىٰ استحقاق الذات الإلٰهيّة لها وجوباً عقلياً.

والعزيز بالمعنىٰ الأوَّل هو القويُّ الذي يَقْهرُ ولا يُقهَر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[1].

والعزيز بالمعنىٰ الثاني الفرد الذي لا مثيل له ولا شبيه ولا نظير. وهو

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٠، و ٧٤.

بمعنييْه اسم مِن أسمائه سبحانه وتعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٦﴾[1].

وأعلن عزَّ وجلَّ في كثير من آيات القرآن الكريم أنَّه صاحب العِزَّة المتفرِّد بها كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾[2]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾[3].

وذهب الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ إلىٰ أنَّ العزيز ــ وهو اسم من أسماء الله جلّ جلاله ــ يعني الواحد النفيس الذي يستحيل عقلاً وجود مثله، والذي يحتاج إليه كلُّ شيءٍ في كلِّ شيء حتىٰ في وجوده وبقائه وصفاته، وهو غنيٌّ عن كل شيءٍ كما قال سبحانه: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[4]، والذي يستحيل الوصول إليه فلا يُحيط بكُنهه أحد سواه كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾[5].

فلا يعرف اللّٰهَ إلاَّ اللّٰهُ، فهو العزيز المُطلَق الحقُّ، لا يوازيه غيره.

الجَلال: معناه العَظَمة، وهي من صفات الذات الإلـٰهيّة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾[6]، وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾[7].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.
(٢) سورة النِّساء: الآية ١٣٩.
(٣) سورة الصافّات: الآية ١٨٠.
(٤) سورة فاطر: الآية ١٥.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٦) سورة الرحمن: الآية ٢٧.
(٧) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

وإجلالُ اللّـٰهِ تعالىٰ تعظيمه عن كلِّ ما لا يليق به سبحانه.

وجاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان النبيُّ ﷺ يجلِسُ بعدَ الصَّلاةِ إلاَّ قَدْرَ ما يَقُول: اللّـٰهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ ومِنْكَ السَّلامُ تباركت يا ذا الجَلالِ والإِكْرامِ»[1].

وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنا مع النبيِّ ﷺ في حَلْقَةٍ ورجلٌ قائمٌ يُصَلِّي، فلمّا ركَعَ وسَجَد تشهَّد ودعا، فقال في دعائِه: اللّـٰهُمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّ لَكَ الحمدَ لا إلـٰه إلاَّ أنتَ المنَّانُ بَدِيع السمـٰواتِ والأرْضِ يا ذا الجلالِ والإِكْرامِ، يا حيُّ يا قيُّوم، فقال النبيُّ ﷺ: لَقَدْ دَعا اللّـٰهَ باسمه الأَعْظَمِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجابَ، وَإِذَا سُئِلَ به أَعْطَىٰ»[2].

قَوْلُهُ: «حتّىٰ أَسْتَوْفِيَ كلَّ خَطِيئةٍ في عُنُقِهِ»:

الاستيفاء أخذ الحقِّ كاملاً دون نُقصان، واستوفىٰ البحث أو الموضوع: تناوله من جميع جوانبه، واستوعبه كاملاً.

والمؤاخذة علىٰ الذنب حقٌّ لله تعالىٰ علىٰ العبد المذنب، جعل إسقاطه عَنْه كاملاً بما يُصِيب المؤمنَ من مَرَضٍ أو فَقْرٍ أو غيرهما مِن مظاهر الابتلاء. وهذا بفضله سبحانه عليه.

قَوْلُهُ: «في عُنُقِهِ...»:

إشارة إلىٰ المسؤوليّة والمؤاخذة، لأنَّهم يُعبِّرون بالعُنُق عمّا في الذمَّة من الحقِّ للآخر في نحو قوله: له في عنقي حقٌّ، وكأنَّ صاحب الحقِّ في قُوَّة سلطانه علىٰ من عليه الحقُّ آخذٌ بعنقه يُدِينُه به حتّىٰ يستوفيَه منه، أو يسامحه.

---

(١) أخرجه ابن عساكر، ورَوىٰ مسلم عن ثوبان: نحوه.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذيُّ والنَّسائيّ وغيرهم بألفاظ متقاربة.

ويخرج بهذا الذنوبُ والمخالفاتُ التي يرتكبها الإنسان بغير إرادته ولا أدنىٰ قَصْدٍ منه، كالذي يرتكبه نسياناً أو خطأً بلا تعمُّدٍ، أو يكون مُكْرَهاً عليه، وهذا ما صرَّح به رسول الله ﷺ بقوله: «رُفِـعَ عن أُمَّتي الخَطَأُ والنِّسْيانُ وما استُكْرِهُوا عليه»[1].

والمُراد بالرفع رَفْعُ المؤاخذة علىٰ الفعل لا الفعل نفسه، لأنَّه وقع، ووصف الفعل لا يُتصوَّر قبل حدوثه.

ونحوه ما جاء في قوله سبحانه في حَقّ من أكره علىٰ قَوْل كلمة الكُفْرِ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[2].

قَوْلُهُ: «وإقتارٍ في رِزْقِهِ»:

أي: قِلَّته. ومنه قولُهم: أَقْتَر الرَّجل: إذا ضاق عيشه وقلَّ ماله، فهو مُقْتِرٌ، أي: فقير، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[3].

والإقتار في الرزق من الشدَّة والابتلاء، فمَنْ صَبر عليه ابتغاءَ وجه الله، أثابه سبحانه بمَحْوِ الخطيئة ورَفْعِ المنزلة].



(١) الطبرانيُّ عن ثوبان.

(٢) سورة النَّحل: الآية ١٠٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣٦.

الحديثُ التاسع
ظنّ العَبْد باللّهِ

عَنْ وَاثِلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«قَالَ اللَّهُ تَعَالىٰ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي ما شاءَ».

[رواه الطَّبرانيُّ والحاكمُ بسندٍ صحيح][1]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»:

[الأَصْل في الظنِّ أنَّه أعلىٰ مراتب التصديق غير الجازم، وهو ما قارنه احتمال النقيض، والظنُّ فيه: هو إدراك الطَّرَف الرَّاجح والأخذ به، ومرتبته دون مرتبة العِلْم، ويأتي بعده في المنزلة الشكُّ، وهو ما تساوت فيه الاحتمالات ولا مرجِّح، ويأتي بعد الشَّكِّ الوَهْمُ، وهو إدراك الطَّرْف المرجوح.

وقد يأتي الظنُّ في اللُّغة بمعنىٰ العلم نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾[2]، أَيْ: علمتُ، وكذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ

---

(١) صحيح الإسناد. انظر: «الجامع الصغير» للإمام السيوطيِّ.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٢٠.

كَذَبُوا۟ . . .﴾[1]، أَيْ: علموا، ونحوه في حديث عُبيدة قال أَنَس: سألته عن قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[2]، فأشار بيده، فظننتُ ما قال. اهـ. أي: علمتُ. ومنه قول دُرَيْد بن الصِّمَّة:

فقلت لهم: ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ   سَرَاتُهُمُ في الفارسيِّ المُسَرَّدِ

أي: استَيْقنوا. لأنَّه إنَّما يُخوِّف عدوّه باليقين.

وقد يُراد بالظنِّ الشكُّ نحو قوله ﷺ:

«إيَّاكُم والظَّنَّ، فإنَّ الظنَّ أَكْذَبُ الحَدِيث»[3]، قيل: أراد الشكَّ يعرض للإنسان، فيُحقِّقه ويحكم به.

وأمَّا في قوله تعالىٰ: «أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي»، فقد] قال البيضاويُّ رحمه الله تعالىٰ: يصحّ إجراءُ الظنِّ علىٰ ظاهره، أَيْ: فإنِّي أُعامله علىٰ حَسَب ظَنِّه، وأفعل به ما يتوقَّعه منِّي.

قال العَلْقميُّ: والمراد الحثُّ علىٰ تغليب الرَّجاء علىٰ الخوف وحُسْن الظنِّ بالله تعالىٰ، ولذا لمّا حُوسِب شخص وأُمِر به إلىٰ النَّار التفت، فأمر تعالىٰ به فجاءَ، فقال له: ما التفتك؟ فقال: يا ربّ، إنِّي فعلتُ تلكَ الذنوبَ لِظنِّي غفرانَكَ لي. فقال تعالىٰ: «كَذَبَ عَبْدي بل فَعَلها وهُوَ غافلٌ عنِّي، ولكنْ حيثُ قلتَ ذلك غفرتُ لك».

[قَوْلُهُ: «فَلْيَظُنَّ بـي مَا شاءَ»:

فعلىٰ قول البيضاويِّ: جازيتُه علىٰ حَسَب ظنِّه إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشرّ.

---

(1) سورة يوسف: الآية ١١٠.

(2) سورة النِّساء: الآية ٤٣، وسورة المائدة: الآية ٦.

(3) متّفق عليه.

وعلىٰ قول العَلْقميّ: فليظنَّ بـي ما شاء من الخير والمغفرة فله ذلك.

وجاء في الحديث: «إنَّ حُسْنَ الظنِّ باللَّـٰهِ من حُسْن عبادة الله»[1].

وجاء أيضاً، قال رسول الله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدٌ منكم إلاَّ وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله تعالىٰ»[2]].



(١) رواه أحمد والترمذيّ والحاكم عن أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر رضي الله عنه.

الحديثُ العاشر

نعيم الجَنَّة

عنْ أبـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قَالَ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلىٰ قَلْبِ بَشَرٍ».

[رواه أحمد، والبُخاريُّ، ومُسلِم، والتِّرمِذِيُّ، وابنُ ماجَه]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «أَعْدَدْتُ»:

أي: هَيَّأْتُ.

قَوْلُهُ: «لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ»:

أي: القائمين بما وجب عليهم مِن حقوق الحقِّ والخَلْقِ.

[**قَوْلُهُ: «ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»:**

أي: أَنَّ ما أعدَّه الله تعالىٰ لِعباده المُتَّقِين في الجنَّة مِن نعيم هو مِن حيثُ الحقيقةُ والواقعُ فَوْقَ تصوُّرِ عقولِهم، وأبعد مِمّا رأته أعينُهم وسمعته آذانُهم، بل هو فوق حدود تصوُّرِ كلِّ عقل بشريٍّ مفكِّرٍ ورُؤْيةِ كلِّ عينٍ مُبصِرةٍ وسماعِ كُلِّ أُذُنٍ واعية.

وهذا العموم أشار إليه قوله: «ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَر علىٰ قَلْبِ بشَرٍ»، فقد وردت هذه الألفاظ: (عين، وأُذُن، وقَلْبَ) في السياق منكَّرةً منفيَّة، والنَّكِرةُ في سياق النفي تُفيد العموم.

فمهما خطر في بال الإنسان من مظاهر النعيم، وحَلَّق بخياله بعيداً عمّا تقع عليه عينه وتسمعه أذنه، فما أعده الله تعالىٰ لعباده في جنَّته هو أجلُّ وأعظم.

وما جاء في القرآن الكريم والحديث النبويِّ الشريف من وَصْفِ نعيم الجنَّة بما له مثيلٌ في الدنيا إنَّما هو لتقريبه إلىٰ الأذهان، وأما الحقيقة فهي فوق حدود الوَصْفِ، ونجد إشارةً إلىٰ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(١)، ففي جنَّة الآخرة أنهار وعيون ماءٍ وفاكهة ورُمّان ولحم طير ولَبَن وعَسَلٌ وأساور مِن ذهب وفضَّة وثياب وأرائك وأزواج وخيرات حِسان، ولكن شتّان بين ما نجد مثله في الدنيا وما يكون في الآخرة].

وسبب هذا الحديث كما في «الدرّ المنثور»: أنَّ موسىٰ عليه السلام سأل ربَّه، فقال: أي ربِّ، أيُّ أهل الجنَّة أدنىٰ منزلة؟

فقال: رجل يجيء بعدما دخل أهل الجنَّة، فيُقال له: ادخُل، فيقول: كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيُقال له: أترضىٰ أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: نعم أَي ربِّ قد رضيت، فيقال له: فإنَّ لك هذا وعَشرة أمثاله معه. فيقول: رضيتُ أيْ ربِّي، فيُقال له: فإنَّ لك مع هذا ما اشتهتْ نفسك ولذَّت عينُك، فقال موسىٰ: أي ربِّ فأيُّ أهل الجنَّة أرفع منزلةً؟ قال: إيّاها أردت، وسأُحدِّثك

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣٥.

عنهم، إنّي غرستُ كرامتَهم بيدي، وختمت عليها، فلا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

[وجاء في «الجامع الكبير» أنَّ سببه كما روىٰ أبو سعيد الخدريُّ رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال:

«إنّي رُفِعْتُ إلىٰ الجنَّة، فاستقبلتني جارِيةٌ، فقلتُ: لِمَنْ أنتِ يا جاريةُ؟ قالت: لزيد بنِ حارِثَةَ. وإذا أنا بأنهارٍ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهارٍ من لَبَن لم يتغيَّر طعمُه، وأنهارٍ من خمرٍ لذَّة للشاربين، وأنهارٍ من عَسَلٍ مُصفّىٰ، ورُمّانها كأنَّها الدِّلاء عِظَماً، وإذا بطائرِها كأنَّه بُخْتُكم هذه».

وذكر عندها ﷺ الحديث بلفظ: «إن الله أعدَّ لعباده»، ولم يرفعْه إلىٰ ربِّ العزَّة تبارك وتعالىٰ.

ويؤيِّد مضمون هذا الحديث قوله سبحانه في سورة الزُّخْرُف: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[1].



(١) سورة الزخرف: الآية ٧١.

الحديثُ الحادي عشر

مَنْ لَمْ يَرْضَ عَنِ اللّٰهِ

عَنْ أَبِـي هِنْدِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ: قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ:

«مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضائي، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلىٰ بَلائِي، فَلْيَلْتَمِسْ رَبّاً سِوَائي»[1].

[رواه الطَّبرانيُّ بسندٍ ضعيفٍ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بقضائي»:

الرِّضا ضِدُّ السَّخَط، وجاء في دعاء النبيِّ ﷺ: «اللّٰهُمَّ إنِّي أعوذ برضاك من سَخَطك وبمعافاتك من عقوبتك»[2]، قال صاحب لسان العرب:

(١) وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٠٧. وذكر ابن قيِّم الجوزيّة في «مدارج السالكين» ١/ ١٢٠: أنّه أثر إسرائيليٌّ لم يصح عن رسول الله ﷺ. أقول: أثبتُّه أمانةً للنقل وحفاظاً علىٰ نصِّ الكتاب، وشرحتُه تحقيقاً لفائدة المعاني.
وليس هناك ما يدل علىٰ وضعه أكثر من كلام ابن القيِّم في «مدارجه»، والراجح أنَّه ضعيف كما جاء في مصادره.

(٢) رواه مسلم.

فإنَّما قدَّم الاستعاذة بالرِّضا علىٰ السَّخَط، لأنَّ المعافاة من العُقوبة تحصل بحصول الرِّضا، وإنّما ذكرها لأنَّ دلالة الأولىٰ عليها دلالة تضمّن، فأراد أن يدلَّ عليها دلالةَ مطابقةٍ، فكنَّىٰ عنها أوّلاً، ثمَّ صرَّح بها ثانياً. اهـ.

وقالوا: الرِّضا بقضاء الله هو ثمرة الطُّمأنينة بالله، والطّمأنينة بالله هي ثمرة الرّضا بالله. والراضي عن الله لا يعترض علىٰ حكمه ولا يتسخَّطه، وإنّما تكون حاله مع مولاه سبحانه نحو قولهم: لو قطَّعنا إرْباً إرْباً لم نزد له إلاّ حُبّاً.

وهو في مقام الرِّضا كما أجاب يحيـىٰ بن معاذ مَن سأله: متىٰ يبلغ العبد إلىٰ مقام الرِّضا؟ فقال:

إذا أقام نَفْسَه علىٰ أربعة أُصول فيما يُعامل به ربَّه، فيقول: إنْ أَعطيتَني قبِلتُ، وَإنْ منعتَني رَضِيتُ، وَإنْ تركتني عَبَدْتُ، وَإنْ دعوتَني أجبتُ.

وجاء في دعاء النبـيِّ ﷺ: «أسألك الرِّضا بعدَ القضاء»[1]، قال أبو عثمان: لأنَّ الرِّضا قبل القضاء عزم علىٰ الرِّضا، والرِّضا بعد القضاء هو الرِّضا.

وكتب عمر بن الخطّاب إلىٰ أبـي مُوسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنهما:

أمَّا بعدُ، فإنَّ الخيرَ كُلَّه في الرِّضا، فإن استطعت أن تَرضىٰ وإلاَّ فاصبِرْ.

والقَضـاء: هـو الحُكـم والحَتْـم والإمْضـاء. والقضـاء والقـدر أمـران متلازمان لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر، لأنَّ أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء.

---

(١) رواه أحمد والنّسائي.

والقضاء قسمان:

قضاء دينيٌّ، وهو أحكام الله سبحانه التي تضمَّنها شرعه الحكيم بنصِّ القرآن الكريم وبيان رسوله العظيم سيدنا محمد ﷺ.

والرِّضا بالقضاء الدينيِّ يعني: التحاكُمَ للَّـهِ ورسوله، وتلقِّيَ حكمهما بصَدْرٍ مُنْشرح وتَسْليم كامل، وهذا ما بيَّنه سبحانه وتعالىٰ في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[1]، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2].

وقضاءٌ كونيٌّ، وهو نوعان:

فمنه ما يُوافق محبَّة العبد وإرادته ورضاه، كالصحَّة والغنىٰ وسائر ألوان النِّعم. وتحقيق الرِّضا بذلك يكون في شُكر المُنعِم سبحانه وتجنُّب معصيته به.

ومنه ما يجري علىٰ خلاف مراد العبد ومحبَّته كالمرض والفقر وشدّة الحر أو البَرْد، ومصيبة الموت. وتحقيقُ الرضا بهذا الضَّرْبِ من القضاء يكون بحُسْن الإقبال علىٰ الله وإظهار محبَّته والحذرِ من التكدُّر وتجنُّبِ الشكوىٰ.

وقضاء الله سبحانه بمختلف أقسامه وأنواعه عدل كلُّه، بل هو العَدْل بعينه لاستحالة الظُّلم علىٰ الله تعالىٰ، وهذا ما جاء في دعائه ﷺ بقوله:

«ماضٍ فيَّ حكمك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك»[3].

---

(١) سورة النِّساء: الآية ٦٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٣) رواه أحمد والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وجاء عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال:

لقد تركَتْني هؤلاء الدَّعَواتُ وما لي في شيءٍ من الأمور كلِّها أرَبٌ إلاَّ في مواقع قدَرِ الله، وكان كثيراً ما يدعو:

اللّٰهُمَّ رضِّني بقضائِكَ، وبارِكْ لي في قدَرِك، حتىٰ لا أُحِبَّ تعجيلَ شيءٍ أخَّرته، ولا تأخيرَ شيءٍ عجَّلْتَه».

وقال: ما أصبح لي هوًى في شيءٍ سوىٰ ما قضىٰ الله عزَّ وجلَّ. وقالوا: الرِّضا يُفرِّغ القَلْب لله ويُثمِر الشُّكر، والسُّخْط يُفرِّغ القلب من الله ويُثمر الكُفْر.

قَوْلُهُ: «وَلَمْ يَصْبِرْ عَلىٰ بَلائي»:

أَيْ: أظهر التذمُّر والتسخُّط مما ابتليتُه به ممَّا لا يُوافق مراده ومحبَّته، وأعرض عنِّي ونبذ حقِّي عليه تسخُّطاً واستياءً.

قَوْلُهُ: «فَلْيَلْتَمِسْ رَبّاً سِوَائي»:

أَيْ: فليطلب لنفسه ربّاً غيري، ولكنْ أنَّىٰ له ذلك وما في الوجود ربٌّ سِواي ولا معبودٌ بحقٍّ غيري. فالصادق في عبوديَّته للّٰهِ لا يعترض علىٰ مولاه، ولا يُخالف سبيل رضاه.

وقوله: «سِوَائي» مثل: سِواي، أي: غيري. وقالوا: إذا كانت بالمد فتحت السين فتقول: سَواء، وإذا كانت بالقصر جاز كسر السين وضمُّها، فتقول: سِوىٰ وسُوىٰ].

وفي الحديث الحثّ علىٰ الرِّضا بالقضاء والصبر علىٰ البلاء.



الحديثُ الثاني عشر

فضل الصِّيام

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ: قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ:

«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصِّيامُ فإنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ».

[رواه البُخاريُّ، ومُسْلِم]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ»:

أي: مُضاف له، لأنَّه ظاهر ومُشاهَد يطَّلع عليه الناس، فهو مظنَّة الرِّياء، بخلاف الصوم في ذلك فإنَّه خالص له تعالىٰ.

[والمراد بعمل ابن آدم سائر العبادات والطاعات والقُرُبات التي يؤدِّيها العبد لله سبحانه، كالصلاة والزكاة والحجِّ والذكر وتلاوة القرآن.

فهذه الأنواع العباديَّة معرَّضة لدخول الرِّياء عليها واستجلاب حظوظِ النفس كالمدح والسُّمعة، فهي أكثر عُرضةً لفقد الإخلاص من غيرها، وهذا ما يؤكِّده حديثُ أوَّل من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام:

«إنَّ أوَّل الناس يُقضىٰ يومَ القيامة عليه رجلٌ استُشهد، فأُتي به فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: قاتلت فيك، حتىٰ استشهدت، قال: كذبت، ولكنّك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل. ثمَّ أُمر به، فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار.

ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم، وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنَّك تعلَّمت ليقال: عالم وقرأتَ القرآن، ليُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثمَّ أُمر به فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفَق فيها إلاَّ أنفقت فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنَّك فعلت ليُقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسُحِب علىٰ وجهه، حتّىٰ أُلقي في النار»(١).

ويذهب الإمام ابن رجب الحنبليّ في كتابه: «لطائف المعارف» في بعض معاني قوله تعالىٰ: «كلّ عمل ابن آدم له»، إلىٰ أنَّ المراد به: أنَّ الأعمال سوىٰ الصيام قد يُكفَّر بها ذنوبُ صاحبها، فلا يبقىٰ لها أجرٌ، فإنَّه رُوي: أنَّه يُوازَن يوم القيامة بين الحسناتِ والسيّئات، ويُقَصُّ بعضُها من بعضٍ، فإنْ بقي من الحسناتِ حسنةٌ دخلَ بها صاحبُها الجنَّة. وهذا ما يؤكِّده حديث المُفلِس في قوله ﷺ:

«أتدرون ما المُفلس؟»، قالوا: المُفلِس فينا مَنْ لا دِرْهم له ولا متاع، فقال: «إنَّ المُفلِس من أُمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي

---

(١) رواه مُسْلِم.

قد شَتَم هذا، وقذَف هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفَكَ دم هذا، وضرَب هذا، فيُعطىٰ هذا من حسناته وهذا مِن حَسَناته، فإن فنيت حسناتُه قَبْل أَن يَقضي ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطُرِحت عليه، ثم طُرِح في النار»[1].

قال: وأمّا الصيام فيحتمل أنَّه لا يسقُط ثوابه بمُقاصَّة ولا غيرها بل يُوفَّر أجره لصاحبه حتىٰ يدخُلَ الجنّة، فيُوفَّىٰ أجره فيها، وعلىٰ هذا يكون المعنىٰ أنَّ الصيام لله عزَّ وجلَّ، فلا سبيلَ لأحدٍ إلىٰ أخذِ أجره من الصيام، فيبقىٰ مدَّخراً لصاحبه عند الله سبحانه.

قَوْلُهُ: «فَإِنَّهُ لِي وَأَنا أَجْزِي بِهِ»:

خصَّ الله تعالىٰ الصيام بإضافته إلىٰ نفسه دون سائر أعمال العبد لوجوه منها: أنَّ الصيام سرٌّ بين العبد وربِّه لا يطَّلع عليه غيره، لأنّه مركَّب من نيَّةٍ باطنةٍ لا يطَّلع عليها إلاَّ الله، وتركٍ لتناول الشهوات التي يُستخفىٰ بتناولها في العادة، ولذلك قيل: لا تكتبه الحَفَظَة، وقيل: إنَّه ليس فيه رياء.

قال ابن رجب الحنبليّ رحمه الله: كذا قاله الإمام أحمد بن حنبل وغيره، وفيه حديث مرفوع مُرسَل، وهذا الوجه اختيار أبـي عبيد وغيره، فإنَّ من ترك ما تدعوه نفسه إليه لله عزَّ وجلَّ حيث لا يطَّلع عليه غيرُ مَن أمره ونهاه، دلَّ علىٰ صحَّة إيمانه.

والله تعالىٰ يُحِبّ مِن عباده أن يعاملوه سِرّاً بينهم وبينَه، وأهل محبَّته يحبّون أن يعاملوه سرّاً بينهم وبينه بحيث لا يطَّلع علىٰ معاملتهم إيّاه سواه. وذكروا عن رابعة العدويّة أنَّها كانت تُسقِط من حسابها ما اطلع عليه الناس مِن أعمالها. لهذا كان الصيام أقربَ مسالِك تقوىٰ الله عزَّ وجلَّ كما قال سبحانه:

---

(١) رواه مُسْلِم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[1].

ونظراً إلىٰ قوّة الإخلاص في الصوم جعل الله تعالىٰ إثابة عبده عليه بنفسه، ولم يَكِل ذلك إلىٰ أحدٍ من ملائكته إعظاماً للصيام وتشريفاً لمكانة الصائم عنده].

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

الحديثُ الثالث عشر
مضاعَفَةُ الحَسَنةُ دُونَ السيِّئة

عَنْ أبـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ:

«إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْها كَتَبْتُها لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَها كَتَبْتُها عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلىٰ سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ، وإذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ولَمْ يَعْمَلْها لَمْ أَكتبها عَلَيْهِ، فإِنْ عَمِلَها كَتَبْتُها سَيِّئَةً واحدةً».

[رواه البُخاريُّ، ومُسْلِم، والتِّرمِذِيُّ]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «إِذا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ»:

[الهَمُّ هو إرادة الشيء ونيَّته والعزمُ عليه، ويتعدَّىٰ فعله بالباء نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾[2]]. والمراد هنا أرادها مصمِّماً عليها أو عازماً علىٰ فعلها.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٤.

[وقَوْلُهُ: «عَبْدِي»:

الإضافة فيه للتشريف، وحَسْب المخلوق شرفاً أن ينسبه الخالقُ سبحانه إليه، ورحم الله القائل:

ومِمّا زادني شرفاً وعِزّاً | وكِدتُ بأَخمَصي أطأ الثُّريّا
دُخولي تحت قولك: يا عبادي | وأَنْ صيَّرت أحمدَ لي نبيّا

ووَصْف المخلوق بالعبوديّة تحقيق لما لا ينفكُّ عنه عقلاً وعقيدةً. فكلُّ مخلوق عبد لخالقه، وهذا ما لا تختلف فيه العقول، ويجب علىٰ كلِّ مخلوق عاقل أن يعتقد هذا الوصف في نفسه تُجاه المعبود الحقِّ سبحانه، ويتحقَّق به في سلوكه مع ربِّه عزَّ وجلَّ، فيكون في جميع أحواله طائعاً لمولاه حريصاً علىٰ نَيْل رضاه.

والحَسَنة: هو العمل الذي وافق الشَّرع، ورغَّب فيه، واستحقَّ فاعلُه الثواب في الآخرة. وكلُّ ما استحسنه الشَّرع وأثاب عليه فهو حَسَنة، وكلُّ ما استقبحه الشَّرع وذمَّ عليه فهو سيِّئة.

وقالوا: إنَّما سُمِّيت الحسنةُ حسنة، لأنَّ وجه صاحبها يحسُن ويُشرِق سروراً بثوابها يوم القيامة، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[1]، وبقوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾[2]. فجاء في معناه أنَّ المؤمن يأتيه كتابه أبيض بكتابة بيضاء، فيأخذه بيمينه فيقرأه فيبيضُّ وجهه، والكافر يأتيه كتابه أسود بكتابة سوداء، فيقرأه فيسودُّ وجهه].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

(٢) سورة عبس: الآيات ٣٨ ــ ٤٢.

قَوْلُهُ: «وَلَمْ يَعْمَلْها»:

أي: لأمر [قاهرٍ] عاقه عنها [كمرض أو حبس أو موت، وفي نيَّته العزم علىٰ فعلها، ولم يصرفه فعل اختياريٌّ عن عملها.

قَوْلُهُ: «كَتَبْتُها لَهُ حَسَنَةً»:

أي: بلا تضعيف، وهذا من فيض كرم المولىٰ سبحانه علىٰ عبده، فهو يثيبه علىٰ نيَّته الصالحة، ولا يعاقبه علىٰ نيَّته السيِّئة في غير أعمال القلب. أمَّا الأعمال القلبيَّة كتصوّرات العقيدة، فيجري عليها الثواب والعقاب كاعتقاد أهل التوحيد بوحدانيّة الله، واعتقاد النصارىٰ بالتثليث.

وفي هذا الحديث بيان لأهميَّة النيَّة، لأنَّها معقد الإخلاص، فقد يقوم العبد بالعمل من الخير، ولا يبنيه علىٰ نيّة صالحة حيث كان فيه مُرائياً، فلا ينال عليه أجراً من الله، وإنّما يستحقُّ عقاباً لِريائه. ويؤكّد هذا المعنىٰ حديث: «نيَّة المؤمن خير من عمله، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ ليُعطي العبدَ علىٰ نيّته ما لا يُعطيه علىٰ عمله»[1]، وذلك لأنَّ النيّة لا رياء فيها. فكانت خيراً من العمل المجرَّد من النيَّة. ويقوّيه أيضاً الحديث الصحيح: «إنَّما الأعمال بالنيَّات»[2].

قَوْلُهُ: «فَإِنْ عَمِلَها كتبتُها عَشْرَ حَسَناتٍ»:

هذا ما وعد الله تعالىٰ به عبادَه المخلِصين بفضله، وخصَّ به أُمَّة حبيبه المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه الديلميّ والبيهقيّ والطبرانيّ والعسكريّ بروايات ضعيفة. قال في المقاصد الحسنة: وهي كانت ضعيفة فبمجموعها يتقوىٰ الحديث.

(٢) رواه البخاريّ ومُسلِم.

فأمّا عن مضاعفة الحسنات بوَعْد اللّـٰهِ سبحانه، فما أكثر نصوصَ القرآن الكريم والحديث النبويّ الشَّريف علىٰ ذلك، وحسبنا ممّا جاء في القرآن من ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[1]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[2]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[3].

وممّا جاء في الحديث النبويّ الشَّريف من ذلك قوله ﷺ: «من تصدَّق بعِدْل تمرةٍ من كسْبٍ طيِّب ولا يقبل الله إلاَّ الطيِّب، فإنَّ الله يقبلها بيمينه، ثُمَّ يُربِّيها لصاحبِها كما يُربِّـي أحدُكم فَلُوَّه حتىٰ تكون مثلَ الجبل»[4].

ومراتب تضعيف الحسنات تتفاوت تَبَعاً لما يقترن بها من الإخلاص وحُسن النيَّة كما تتفاوت بحسب اختلاف الزمان والمكان.

فالصدقة في شهر رمضان أفضل منها في غيره لقوله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة في رمضان»[5].

ولقوله صلوات الله وسلامه عليه: «من تقرَّب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدَّىٰ فريضة فيما سواه، ومن أدّىٰ فريضة فيه كان كمن أدّىٰ سبعين فريضةً فيما سواه»[6].

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦١.
(٤) متّفق عليه.
(٥) رواه الترمذيّ.
(٦) رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي وأبو الشيخ وابن حبان.

والعمل الصالح في عشر ذي الحجَّة يتضاعف حتىٰ يعدل الجهاد لقوله ﷺ: «ما من أيّام العمل الصالح أحبُّ إلىٰ الله من هذه الأيام» ــ يعني أيّام العَشْر ــ قالوا: يا رسول الله، ولا الجهادُ في سبيل اللّٰـهِ؟ قال: «ولا الجهادُ في سبيل اللّٰـهِ، إلاَّ رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيءٍ»[1].

والحسنة في الحرم المكِّيِّ والصلاةُ فيه تعدِل مائةَ ألفٍ فيما سواه، والصلاة في مسجد رسول الله ﷺ تعدل ألف صلاةٍ فيما سواه غير المسجد الحرام والصلاة في مسجد الأقصىٰ تعدل خمسمائة صلاةٍ فيما سواه إلاَّ المسجد الحرام والمسجد النبويَّ الشَّريف، وذلك لقوله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه إلاَّ المسجد الحرام»[2]، ولقوله من حديث الأرقم رضي الله عنه: «فالصلاة هٰهنا هٰهنا، وأومأ بيده إلىٰ مكَّة، خيرٌ من ألف صلاةٍ، وأومأ بيده إلىٰ الشام»[3]، ولقوله ﷺ: «وصلاته في المسجد الأقصىٰ بخمسين ألفِ صلاةٍ، وصلاته في مسجدي بخمسين ألفِ صلاةٍ، وصلاته في المسجد الحرام بمائةِ ألف صلاةٍ»[4].

ولقوله في مضاعفة أجر الصيام في مكَّة: «من أدرك رمضان بمكَّة فصامَه، وقام منه ما تيسَّر له، كَتَب الله له مائة ألفِ شهر رمضان فيما سواها، وكَتَب الله له بكلِّ يومٍ وكلِّ ليلةٍ عتقَ رقبةٍ، وكلِّ يومٍ حُملانَ فرسٍ في سبيل الله، وفي كلِّ يوم حسنةً، وفي كلِّ ليلةٍ حسنةً»[5].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مُسلِم.

(٣) رواه أحمد في مسنده.

(٤) رواه ابن ماجه.

(٥) رواه ابن ماجه.

وأقلُّ مراتب تضعيف الحسنات عشر مراتب إلىٰ سبعين ضعفاً وإلىٰ سبعمائة أو أكثر ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾.

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ عمل ابنِ آدمَ له الحسنةُ بعَشْرِ أمثالها إلىٰ سبعمائة ضِعفٍ...»[1].

والحسنات التي تضاعف هي الحسنات المقبولة التي يفعلها العبد بنفسه أو يفعلها عنه غيره بالنيابة فيما تصحُّ النيابة فيه من الأعمال كالحجّ والصَّدَقة. وأمّا الحسنات المأخوذة يوم القيامة نظير الظُّلامة لحديث: «فيُعطىٰ هذا من حسناته وهذا من حسناته»[2] فلا تضاعف، وكذلك ما ينويه العبد من الحسنات ولا يفعله لا يضاعف.

وأمّا أنَّ مضاعفة الأجر بفضل الله علىٰ العبد، فهذا ما لا ريب فيه، لأنَّ الخلق أجمعين هم مُلْك لله ربِّ العالمين وما يكون منهم من طاعات وحسنات، فإنْ أثابهم الله تعالىٰ علىٰ أعمالهم خيراً فبفضله، لا لأنَّه حقٌّ لهم عليه، فالمولىٰ سبحانه لا تضرُّه معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة الطائع، لأنَّه غنيٌّ عن العالمين، فله أن يُدخِل الطائع النار والعاصي الجنَّة، وليس لأحد أن يعترض عليه، لأنَّ الملك الحقَّ يفعل بمُلكه ما يشاء.

ولكنَّه سبحانه تفضَّل علىٰ عباده بأن خلق الطاعات ونسبها إليهم، فقال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٢﴾[3]، وهذا مَحْض الفضل والمِنَّة، فهو يُدخِل الطائع الجنَّة بفضله، ويُدخِل العاصي النار بعدله. وإذا جعل الله

---

(١) رواه مُسْلِم.

(٢) رواه مُسْلِم.

(٣) سورة النحل: الآية ٣٢.

تعالىٰ إدخال الطائع الجنة حقّاً عليه نحو قوله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقّاً علىٰ الله أن يُدخِله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلِد فيها»(١).

فهذا ليزداد المؤمن يقيناً بوعد الله وطُمأنينةً بما أعدَّ له من الأجر والثواب. فجعله بمثابة الحقِّ اللاَّزم، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾(٢).

وأمّا أنَّ مضاعفة الحسنات من خصائص أُمَّة سيِّدنا محمد ﷺ، فهذا مذهب أهل السنَّة والجماعة سَلَفاً وخلفاً، وأمّا غيرها من الأُمم فحسنتهم حسنة واحدة.

قَوْلُهُ: «إلىٰ سَبْعمائةِ ضِعْفٍ»:

إمّا أن يُحمَل علىٰ الحقيقة، أو يُحمَل علىٰ المبالغة والكثرة، لأَنَّ العرب تبالغ بما فيه لفظ السبعة، لأنَّها غايةٌ مستقصاة جامعة لأكثر أقسام العدد، فيُعبِّرون بالسبعة والسبعين والسبعمائة عن العدد الكثير لا علىٰ سبيل الحصر.

نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾(٣)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «والله إنِّي لأستغفرُ اللّـٰهَ وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعينَ مرَّة»(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ.

(٢) سورة الروم: الآية ٤٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٤) رواه البخاريُّ.

قَوْلُهُ: «وإذا هَمَّ بسَيِّئةٍ وَلَمْ يَعْمَلْها لَمْ أَكْتُبْها عَلَيْهِ»:

السيِّئة هي العمل الذي ذمَّه الشَّرْع، واستحقّ فاعله العقاب، ويُسمَّىٰ الخطيئة. وقالوا: سمِّيت سيِّئة لاستياء صاحبها من عاقبتها.

والسيِّئة هي عورة الأقوال والأفعال والنوايا التي يجب سَتْرها والخجل من كَشْفها، وأبلغ مظاهر سَتْرِها عدمُ ارتكابها.

قَوْلُهُ: «وَلَمْ يَعْمَلْها لَمْ أَكْتُبْها عَلَيْهِ، فإِنْ عَمِلَها كَتَبْتُها سَيِّئَةً وَاحِدَةً»:

هذا من تمام الفَضْل وكمال العَدْل. وإذا كان الدافع إلىٰ تَرْك العمل بالسيِّئة امتثال حكم الله تعالىٰ والخوف منه والرغبة في ثوابه كتبها الله سبحانه للعبد حسنةً كاملة، وذلك كما جاء في حديث أبـي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعملَ سيئةً فلا تكتبوها عليه حتىٰ يعملها، فإِنْ عمِلَها فاكتبوها بمثلِها، وإن تركها مِن أجلي فاكتبوها له حسنةً»(1)].



(1) رواه البخاريُّ ومُسْلِم.

الحديثُ الرابع عشر

لِقـاءُ اللّٰهِ

عَنْ أَبـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ: قَالَ اللّٰهُ تَعَالىٰ:

«إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقاءَهُ، وَإِذَا كَرِهَ لِقَائي كَرِهْتُ لِقَاءَه».

[رواه مالك، والبُخاريُّ، ومُسْلِم]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي»:

أَيْ: بأن عمل عَمَلَ المحبِّ لمحبوبه عند لقائه، وذلك بامتثالِ الأوامر والنواهي [، فاستعدَّ بالأعمال الصالحة لِلقاء وجه ربِّه الكريم مؤثراً الآخرة علىٰ الدنيا، ومن كان علىٰ هذه الصفة العظيمة لا يحبُّ استمرار الإقامة في دار الفناء، بل يستعدّ للارتحال عنها إلىٰ دار البقاء.

ولقد أوضح الله تعالىٰ سبيل الاستعداد للقائه، فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[1].

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

فالمؤمن الذي أعرض عن العصيان ولزم طاعة الرحمن، وأخلص العمل لله يكون أكثر حرصاً علىٰ لقاءِ الله وشوقاً إليه من غيره، فيحدو به ذلك الشوق إلىٰ أن يبيع روحه لربِّه، فلا يتقاعس عن معتركات الجهاد في سبيل الله، بل يقذف بنفسه إلىٰ أتُون القتال طمعاً بمغادرة الدنيا إلىٰ ما عند الله تعالىٰ من الأجر والثواب والنعيم المقيم في جنات عرضها السموات والأرض أُعِدَّت للمتَّقين.

وجاء في معنىٰ حُبِّ العبد لِلقاء الله أنَّه إذا حضَّره الموت وكان من أهل الجنَّة بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبّ إليه ممّا أمامه، فأحبَّ لقاء الله، وأحبَّ الله لقاءه].

قَوْلُهُ: «أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ»:

أَيْ: هيّأت له الإكرام العظيم كما يُهَيِّـىء المحبُّ لمحبوبه الشيء العظيم إذا جاءه. [قال بعض العلماء: محبَّة الله لعبده إرادته الخير له وهدايته إليه وإنعامه عليه].

فليس المراد من الحديث أنَّ الإنسان يحبُّ الموت، إذِ الطبع البشريُّ جُبِل علىٰ حُبِّ الحياة إلاَّ ما قلَّ. [وهذا ما أوضحه موقفُ السيدة عائشة رضي الله عنها عندما قالت ــ وقد سمعت منه هذا الحديث ــ: يا نبيَّ الله أكراهة الموت؟ فكلّنا نكره الموت، فقال: «ليس ذلك»، وجاء في رواية حميد عن أنس: «ولكنّ المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله وليس شيء أحبّ إليه من أن يكون قد لقي الله فأحبَّ الله لقاءه».

وجاء عن عبد بن حميد من وجه آخر عن عائشة مرفوعاً: «إذا أراد الله بعبد خيراً قيّض له قبل موته بعام ملكاً يُسدِّده ويُوفِّقه، حتىٰ يُقال مات بخير ما كان، فإذا حُضر، ورأىٰ ثوابه اشتاقت نفسه، فذلك حين أحبّ لقاء الله

وأحبَّ الله لقاءه، وإذا أراد الله بعبد شرّاً قيَّض له قبل موته بعام شيطاناً، فأضلَّه وفتنه، حتّىٰ يُقال مات بشرٍّ ما كان عليه، فإذا حُضِر، ورأىٰ ما أعدَّ له من العذاب جَزِعت نفسه، فذلك حين كره لقاء الله وكره الله لقاءه»].

قَوْلُهُ: «وَإِذَا كَرِه لِقَائِي»:

أَيْ: بأن عمل عملَ من يكره لقاء شخصٍ، وذلك بارتكاب المعاصي.

[وقال بعض العلماء: المراد حُبّ العبد للحياة الدنيا وركونُه إليها وكراهيته أن يصير إلىٰ الله والدار الآخرة. وهذا ما يتَّضح في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا... ﴾[(1)].

قَوْلُهُ: «كَرِهتُ لقاءَه»:

قال المازري: يُحمَل الحديث علىٰ كراهته سبحانه وتعالىٰ الغفرانَ له وإرادته لإبعاده من رحمته.

ويكون بما أعدَّ له من العذاب في النار، لأنَّ المحبَّ يستقبل محبوبَه بأحبِّ الأشياء إليه، والمبغِض يستقبل بغيضه بأكره الأشياء إليه].



(1) سورة يونس: الآية ٧.

الحديثُ الخامس عشر

قيّوميّة الله علىٰ عباده ومظاهر فضله عليهم

عَنْ أَبِـي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ قَالَ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُه مُحَرَّماً بَيْنَكُمْ[1] فَلا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكم. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فـاسْتَطْعِمُـونـي أُطْعِمْكُـمْ. يَـا عِبَـادِي، كُلُّكُـمْ عَـارٍ إِلَّا مَـنْ كَسَـوْتُـهُ، فَاسْتكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ في مُلْكِي شَيْئاً.

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب كما في صحيح مسلم: «بينكم محرّماً» بتقديم (بينكم) علىٰ (محرّماً).

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ عَمِلَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللّٰهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ».

[رواه مُسْلِم]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي»:

نداءُ تشريف وتلطُّف، وفيه تذكير للعباد بأمرَين: الأوّل نعمة العبوديَّة لله، والثاني: ما يجب أن يكون عليه العبد من سُرعة الاستجابة لسيِّده وامتثال أمره ونهيه].

قَوْلُهُ: «إِنِّي حَرَّمْتُ»:

أي: منعت، [لأنَّ أصل التحريم في اللُّغة المنع. والحَرام: الممتنع. وحرام عليَّ فعل كذا: أَيْ أمنع نفسي من ارتكابه].

قَوْلُهُ: «الظُّلْمَ عَلىٰ نَفْسِي»:

قال المناوي: أي تقدَّستُ عنه، لأنَّه مجاوزة الحدِّ والتصرُّف في ملك الغير وكلاهما مستحيل في حقّه تعالىٰ. [وهو مستحيل عقلي في حقِّ الله عزَّ وجلَّ، لأنَّ كلَّ ما يفعله تصرُّفٌ في ملكه لاستحالة وجود مالك غيره، فلا

يُتصوَّر عقلاً وقوع الظلم منه سبحانه، وعلىٰ هذا المفهوم يُحمَل قول أُبـيٍّ بن كعبٍ: لو أنَّ اللّه عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم[1].

وفسَّر كثير من العلماء الظلم بأنَّه وضعُ الأشياء في غير موضعها، وهذا مستحيل عليه سبحانه لمنافاته الحكمةَ الواجبةَ له جلَّ جلاله.

وفرَّقوا بين الظلم والهضم في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾[2]، فقالوا: الهَضْمُ: أن يُنقَصَ من جزاء حسنات العبد، والظُّلم أن يعاقب بذنوب غيره. وكلا الأمرين تقدّس الله تعالىٰ عنهما، لأنَّه صاحب الجود والكرم والإحسان إلىٰ عباده.

ولمَّا كان الظُّلْم شرّاً وإثماً مبيناً، فقد حرَّمه الله، وأعلن بغضه له ولكلِّ من يتَّصف به، وجاء في القرآن الكريم آيات كثيرة بهذا المعنىٰ نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[5]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[6]].

قَوْلُهُ: «وجعلتُه محرَّماً بَيْنَكُمْ»:

أَيْ: حكمتُ بتحريمه بينكم، فإذا فعلتُم ذلك [ارتكبتم حراماً وتجاوزتم حدَّ الله].

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) سورة طه: الآية ١١٢.

(٣) سورة فُصِّلت: الآية ٤٦.

(٤) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٥) سورة النِّساء: الآية ٤٠.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

قَوْلُهُ: «فَلا تَظَالَمُوا»:

أَيْ: لا يظلم بعضكم بعضاً. [وهو بحذف تاء المضارعة وأصله: «فلا تَتَظالموا»، فجوَّزوا حذف تاء المضارعة إذا وليتها تاءٌ أخرىٰ للتخفيف، ومثله قول أبـي تمام:

يـا صـاحبـيَّ تقصَّيـا نظـرَيْكُمـا ... تَـريـا وجـوه الأرض كيـف تَصَـوَّر

أي: تتصوّر.

وفي قوله تعالىٰ: «فلا تظالموا» توكيدٌ لقوله: «وجعلته بينكم محرَّماً» وزيادةُ تغليظ في تحريم الظُّلْم. فلا يجوز لأحدٍ من العباد أَنْ يظلم غيره، فإذا فعل أدنىٰ شيءٍ من الظُّلم استحقَّ العقاب من الله في الدنيا والآخرة، أمَّا في الدنيا فلقوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[1]، ولقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[2]، ولِقول رسول الله محمد ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِته»[3].

وأمَّا في الآخرة فلِقَوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[4]، ولقـولـه ﷺ: «اتّقـوا الظلـم، فـإنَّ الظلـم ظُلمـات يـوم القيامة»[5]، ولقوله: «مَنْ ظَلَم قِيد شبرٍ مِن الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أَرضين»[6].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٩.

(٢) سورة هود: الآية ١٠٢.

(٣) رواه البخاريّ ومسلم والترمذي والنّسائي وابن ماجه.

(٤) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٥) رواه مُسلِم.

(٦) متّفق عليه.

والظُّلْم نوعان:

أحدهما: ظُلم النَّفس، وأعظمه الشِّرْك كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

والثاني: ظلم العبد لغيره، وهو المراد بقوله تعالىٰ: «فلا تَظَالموا»].

قَوْلُهُ: «كُلُّكُمْ ضَالٌّ»:

أَيْ: غافل عن الشرائع قبل إرسال الرُّسُل. [قال المازريُّ: المراد وصفهم بما كانوا عليه قبل مبعث النبـيِّ ﷺ. اهـ.

وليس المراد أنَّهم خُلِقوا علىٰ الضلال، لأنَّ الحديث المشهور يقول: «كلُّ مولود يُولَد علىٰ الفِطْرَة»[2]، أي: يُولَد موحِّداً مهتدياً، ثمَّ يطرؤ عليه الضلال بسبب تَسلُّطِ الشيطان وطغيان الشهوات كما قال تعالىٰ علىٰ لسان الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[3]، وكما قال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾[4]، وكما قال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾[5]، وكما قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾[6]].

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٢) رواه الشَّيخان عن أبـي هريرة.

(٣) سورة النساء: الآية ١١٩.

(٤) سورة النِّساء: الآية ٦٠.

(٥) سورة الحشر: الآية ١٦.

(٦) سورة يسۤ: الآية ٦٢.

قَوْلُهُ: «إِلَّا مَنْ هَدَيْتُه»:

أَيْ: وفَّقتُه للإيمان [، وكتبتُه له، وفي هذا دليل لمذهب أهل السنَّة والجماعة القائل بأنَّ المهتدي هو مَنْ هداه الله تعالىٰ، وبهدي الله اهتدىٰ، وبإرادته جلَّ جلالُه، وأنَّه سبحانه إنَّما أراد هداية بعض عباده وهم المهتدون لمَّا علم منهم سُلوكَ سبيل الهداية باختيارهم قبل أن يقع منهم ذلك الاختيار، بعد أن دلَّهم علىٰ طريق الخير والشرّ كما جاء في قوله الحقّ: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾[1]، فكافأهم سبحانه بالتوفيق للإيمان والتثبيت عليه.

ولم يُرِد هداية الآخرين لمّا وقع في سابق علمه أنَّهم سيختارون الكفر علىٰ الإيمان، ولو أراد لهم الهداية لاهتدَوا حيثُ قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[2].

فالفضل أوّلاً وآخراً يرجع إلىٰ الله سبحانه الذي وهب الإنسان وسائل المعرفة ومنحه القدرة علىٰ الاختيار، وأوضح له سبيل الهداية وسبيل الضلال، وأرسل إليه الرُّسُل لتدلَّه علىٰ طريق الإيمان، وتأخذ بيده إليه.
وهذا ما أحسَّ به عبد الله بنُ رَواحة رضي الله عنه، فقال مرتجزاً:

واللَّـهِ لـولا الله مـا اهتـدينـا ولا تصـدَّقْنـا ولا صلَّينـا

ولقد نزل القرآن الكريم مؤكِّداً هذه الحقيقة، فقال تعالىٰ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[3]].

---

(١) سورة البلد: الآية ١٠.

(٢) سورة يونس: الآية ٩٩.

(٣) سورة الحُجرات: الآية ١٧.

قَوْلُهُ: «فاسْتَهْدُوني»:

أَيْ: سَلُوني [الهداية إلىٰ الصراط المستقيم والثبات عليه وهو الإيمان والإسلام، ولقد أمر الله تعالىٰ عباده أن يقرؤوا في كلِّ ركعة من صلاتهم قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(1)، لأنَّهم مفتَقِرون إلىٰ الله لكي يرزقهم أسباب الهداية إليه والثبات عليها، ويجنِّبهم أسباب سلبِ الإيمان.]
وكان من دعائه ﷺ: «اهدني لما اختُلف فيه من الحقِّ بإذنك إنَّك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم»(2).

قَوْلُهُ: «أَهْدِكُمْ»:

أنصب لكن أدلَّةً واضحةً علىٰ ذلك، [نحو الآيات الدالة علىٰ وجود الله في ملكوت السماوات والأرض وفي أنفس المخلوقين، وهذا ما أشار إليه المولىٰ سبحانه في عموم قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾(3)، كما أشار إليه تفصيلاً بقوله: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾(4).

وأحسن الشاعر التذكير به في قوله:

أيا عجباً كيف يُعصىٰ الإلٰه — أم كيف يجحده الجاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ — تدلُّ علىٰ أنَّه... الواحِدُ

---

(1) سورة الفاتحة: الآية ٦.
(2) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السُّنَن.
(3) سورة فُصِّلت: الآية ٥٣.
(4) سورة الغاشية: الآيات ١٧ ــ ٢٠.

ومن هداية الله تعالىٰ لعبده أن يُقيِّض له من يُعلِّمه الهُدىٰ، ويدلّه عليه كالرسل والأنبياء كما قال تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[1]، وكما قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ. . . ﴾[2]، وكالدعاة إلىٰ الله من العلماء والمؤمنين المخلصين المتَّبعين لطريقة الأنبياء والمرسلين كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾[3]، وكالوالدين الصالحين كما قال عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولود يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه ويُنصِّرانه ويمجِّسانه»[4]، فإن كانا صالحين حافظا علىٰ صفاء فطرته وأنوار الهداية في قلبه، وأخذا بيده إلىٰ الله منذ نعومة أظفاره.

قَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُم جَائِعٌ إلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُه»:

الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان، وخلق فيه أجهزة استقبال الطعام والشراب وسائر الغذاء وأجهزة الهضم وامتصاص الغذاء، وخلق له أنواع المأكولات والمشروبات المختلفة، ومكَّنه من الوصول إلىٰ رزقه عبر أطوار حياته المختلفة، وجعله سائغاً بين يديه، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾[5]، وكما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[6].

ولولا ما قسم الله للعبد من الرزق الذي تقوم به حياته لقتله الجوع

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٣. سورة الفتح: الآية ٢٨. سورة الصف: الآية ٩.

(٣) سورة غافر: الآيتان ٣٨، ٣٩.

(٤) رواه الشيخان.

(٥) سورة الروم: الآية ٤٠.

(٦) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

وأتلفه العطش. فالمُطعِم الحقّ هو الله ربُّ العالمين القائل في كتابه الكريم: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾[1].

قَوْلُهُ: «فاسْتَطْعِمُوني أُطْعِمْكُمْ»:

أَمْرٌ للعباد باللُّجوء إلىٰ الله تعالىٰ في طلب الرزق، لأنَّه وحده القادر علىٰ ذلك، وما قدَّره لعبده من الرِّزق لن يحول أحدٌ بينه وبين الوصول إليه إلاَّ بإذن الله كما جاء في الحديث: «إنَّ روح القُدُس نفث في رُوعي أنَّ نَفْساً لن تموت حتىٰ تستكمل أجلها، وتستوفي رزقها...»[2].

قَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوتُه»:

إنَّ الإنسان أوَّل ما يُولَد يُولَد عارياً لا يستر بدنه شيء، ثُمَّ يُلقي عليه والداه من الثِّياب ما يستر بدنه، ويُواري عورته من رزق الله تعالىٰ الذي أشار إليه في قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[3].

والكِساء هو كلّ ما يستر البدن ويواري العورة من اللِّباس مما يُتجمَّل به وغيره، ويقال: كسوت فلاناً أكسوه كِسْوَةً: إذا ألبسته ثوباً أو ثياباً فاكتسىٰ، ويُقال للباس كُسوة بكسر الكاف وضمِّها.

قَوْلُهُ: «فاسْتَكْسُوني أَكْسُكُمْ»:

أي: سلوني ذلك معتقدين أنَّه لا أحد يقدر علىٰ إكسائكم غيري، لأنِّي خالقُ الكساء ومالكُه].

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٢) رواه البزار، والحاكم.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

قَوْلُهُ: «يا عِبَادِي، إنَّكم تُخْطِئونَ بِاللَّيلِ والنَّهارِ»:

أي: تفعلون الخطيئة عمداً [وهي الذنب وكلُّ ما تعمَّد فيه العبد مخالفة أوامرِ اللَّـهِ ونواهيه. ويُقال: خَطِىءَ لمن ارتكب الإثم متعمّداً، وأخطأَ لمن فعل خلافَ الصّواب من غير تعمُّد. والخطيئة والخِطْءُ: بمعنًى واحد وهو الإثم، ويقال لفاعله خاطِىء، نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾[1]، أي: إثماً، وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾[2]، أي: آثمين.

والعباد معرَّضون لارتكاب الذنوب في الليل والنهار حيث يقعون فيهما تحت سلطان النفوس والأهواء والشياطين.

قَوْلُهُ: «وَأَنا أَغْفِرُ الذنوب»:

أصل الغَفْر التغطية والستر، وغفر الله ذنوبه، أي: سترها وعفا عنها، والغفور والغفّار جلَّ ثناؤه هما من أبنية المبالغة ومعناهما: الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وسيّئاتهم. وهذا من فضله تعالىٰ وجوده وإحسانه إلىٰ عباده.

قَوْلُهُ: «جميعاً»:

إشارة إلىٰ شمول كرم الله تعالىٰ وعموم عفوه وسابغ فضله، وطَرْح لليأس عن نفوس المذنبين التائبين؛ كما جاء في قوله سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣١.
(٢) سورة يوسف: الآية ٩١.
(٣) سورة الزُّمر: الآية ٥٣.

قَوْلُهُ: «فاسْتَغْفِروني أَغْفِرْ لَكُمْ»:

أي: سَلُوني المغفرة أُعطِكم إياها، فهو طلب وجوابه يأتي من الله ربِّ العالمين فضلاً وكرماً ورحمةً للعباد. والعبد أحوج ما يكون إلىٰ طلب المغفرة من الله عزَّ وجلَّ، لأنَّه يُخطىء بالليل والنّهار، وقد تكرَّر في القرآن ذكر التوبة والاستغفار والأمر بهما والحثُّ عليهما كما تكرَّر في السُّنَّة.

فجاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[1]، وقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[2]، وقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[3].

وجاء في السُّنَّة قوله عليه الصلاة والسلام: «كلّ ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوّابون»[4]، وقوله: «إنَّ الله تعالىٰ يبسُط يدَه بالليل لِيتُوبَ مسيءُ النَّهار، ويبسُط يده بالنَّهار ليتوبَ مُسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها»[5].

وفي قوله تعالىٰ: «يا عبادي، كلّكم ضالٌّ»، إلىٰ قوله: «أَغْفِر لكم»:

بيان لأمرين اثنين:

الأوَّل: أنَّ جميع الخَلْق مفتقرون إلىٰ الله تعالىٰ في جلب مصالحهم ودفع مضارِّهم في أمور دينهم ودنياهم، وهذا ما أكَّده الله سبحانه في قوله:

(١) سورة النور: الآية ٣١.
(٢) سورة هود: الآيات ٣، ٥٢، ٩٠.
(٣) سورة نوح: الآية ١٠.
(٤) رواه الترمذيّ، وابن ماجه، وأحمد، والحاكم.
(٥) رواه مُسْلِم.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

والثاني: أنَّ الله تعالىٰ يُحبُّ أن يسأله العباد جميعَ مصالح دينهم ودنياهم، وفي هذا تحقيق لمطلَق عبوديَّتهم لله وصادق افتقارهم له سبحانه، وجاء في القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة تأكيد ذلك والتوجيه إليه نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا سألت فاسأل الله»[3]، وقوله: «الدعاء مخّ العبادة»[4].

قَوْلُهُ: «يا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني»:

الضَّرُّ بفتح الضاد مصدر ضَرَّ وهو ضِدّ النفع، والضُّرُّ بضمِّ الضاد الاسم منه، وقيل: هما لغتان، وقيل: إذا أفردت الضرَّ ضَمَمتَ الضاد، وإذا جمعت بين الضرِّ والنفع فتحت الضاد.

وقيل: كلُّ ما كان من سوء حال وفقْر أو شدَّة في بَدَنٍ فهو ضُرّ، وما كان ضداً للنفع فهو ضَرّ بفتح الضاد.

فالضرُّ بفتح الضاد وضمِّها هو سوء الحال، إما في النفس كقلّة العلم والفضل، وإمّا في البدن كالنقص والألم والجِراحة، وإمّا الحال الظاهرة كقلّة المال والجاه.

ولحاق الضرِّ به سبحانه مستحيل عليه، لأنَّه نقص وعجز وافتقار، وهو ضدُّ الكمال الواجب له سبحانه، وضدُّ الغناء عن العالمين الثَّابت في حقّ ذاتهِ العليّةِ المنزَّهةِ عن النقص.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٥.
(٢) سورة غافر: الآية ٦٠.
(٣) رواه الترمذيُّ، وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) رواه الترمذيّ، وابن ماجه.

قَوْلُهُ: «وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فتنفعوني»:

النَّفْع ما يُستعان به في الوصول إلىٰ الخيرات، وما يُتوصَّل به إلىٰ الخير فهو خير، وهو ضدّ الضرِّ.

والله تعالىٰ غنيٌّ عن العالمين لا تضرُّه معصية العصاة، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[1]، وقال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾[2]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[3]، أي: لن يصل إلىٰ الله لحوم تلك الأضاحي ولا دماؤها لينتفع بها. فهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين لا يفتقر إلىٰ أحد من خلقه، ويفتقر إليه الخلق أجمعون.

وكان النبيُّ ﷺ يقول في خطبته: «ومَن يعصِ الله ورسولَه فقد غوىٰ، ولا يضرُّ إلاَّ نفسه، ولا يضرّ اللّـهَ شيئاً»[4].

قَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كانُوا عَلىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُم ما زَادَ ذَلِكَ في مُلْكِي شَيْئاً»:

تأكيد لمضمون الجملة السابقة في أنَّ الله تعالىٰ غنيٌّ عن العالمين، فلو كان الخلق كلُّهم بررةً أتقياء، وكانت قلوبهم علىٰ أرفع ما يبلغه عبدٌ من تقوىٰ الله عزَّ وجلَّ، لم يزد ذلك في ملكه سبحانه شيئاً ولا قدر جناحِ بعوضةٍ.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٧.

(٣) سورة الحجّ: الآية ٣٧.

(٤) رواه البيهقيّ في «سننه».

قَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُم وجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِنْ مُلْكي شَيْئاً»:

أَيْ: ولو كان الخلق جميعاً عصاةً فَجَرَةً وقلوبُهم كانت علىٰ أحطِّ وأقبح مستويات الفِسْق والفجور لم ينقص ذلك من ملك الله شيئاً، لأنَّ ملكه سبحانه كامل لا يقبل زيادة ولا نَقْصاً، وكلَّ ما يكون من العباد من طاعات أو معاصٍ واقع في دائرة ملكه، لأنَّه من خَلْقه وإيجاده، وإن كان من كَسْبِ عباده، فلا يصحُّ بذلك ــ عقلاً ــ إحتمالُ النَّقص أو الزيادة في مُلكه جلَّ جلالُه.

وفي هذا المقطع من الحديث دليل علىٰ أنَّ الأصل في التقوىٰ والفجور هو القلب، وأنّ سائر الجسد تَـبَـعٌ له كما جاء في الحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «ألا إنَّ في الجسد مُضغة فإذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»[1]، وكما جاء أيضاً عن النبـي ﷺ: «التقوىٰ ها هنا» وأشار إلىٰ صدره[2]. ويؤكِّد هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[4]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[5].

فالقلب هو محطُّ أنوارِ التقوىٰ وظلماتِ المعصية.

---

(١) متَّفق عليه.

(٢) رواه مُسلِم.

(٣) سورة الحجّ: الآية ٤٦.

(٤) سورة قَ: الآية ٣٧.

(٥) سورة الشعراء: الآية ٨٨، ٨٩.

قَوْلُهُ: «يا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مسألَتَه، ما نَقَصَ ذلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذا أُدْخِلَ البَحْرَ»:

المراد هنا بيان كمال قدرته وكمال ملكه سبحانه، وأنَّ خزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء، ولو أعطىٰ الخَلْق أجمعين من أوَّل نَفْسٍ خلقها إلىٰ آخر نَفْسٍ يخلقها من الإنسِ والجنِّ وسائر الخَلْق جميعَ ما سألوه في مقام واحد، كما قال تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[1]، وكما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «يدُ اللَّهِ مَلأَىٰ، لا تَغِيضُها نفقة، سَحّاءُ اللَّيلِ والنَّهار، أفرأيتم ما أنفق منذ خَلَق السمواتِ والأرضَ؟ فإنَّه لم يغِضْ ما في يمينه»[2].

قَوْلُهُ: «إلاَّ كما ينقُصُ المِخْيَط إِذا أُدْخِلَ البَحْرَ»:

المِخْيَط ــ بكسر الميم وفتح الياء ــ هو الإبرة، قال العلماء: هذا تقريب إلىٰ الأفهام في استحالة النقص علىٰ ملك الله، فالمخْيَط هو غاية ما يُضرَب به المثل في القلَّة، فإذا أُدخِل البحرَ العظيم ماؤه، وأُخرِج لم يتعلَّق به ماء بسبب صقالته، فلا يتأثَّر ذلك البحر، ولا يفقد ذرّة من مائه، فمسائل الخلق أجمعين لا تزيد في تأثيرها في بحر ملك الله علىٰ تأثير الإبرة إذا أُدخِلت الماء الكثير.

قَوْلُهُ: «يا عِبَادِي، إنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاها»:

يعني: أنَّ الله تعالىٰ يُحصي علىٰ عباده أعمالهم دِقّها وجِلّها صغيرها

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٦.

(٢) رواه أحمد والترمذيّ.

وكبيرها، من خيرٍ أو شرٍّ، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾[1]، وكما قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[2]، وكما قال جلَّ في علاه: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[3].

وتوفية الأعمال هي توفية جزائها من خيرٍ أو شرٍّ، فالشرُّ يُجازىٰ به مثلَه من غير زيادةٍ، إلَّا أن يعفو الله عنه، والخير يُضاعف الحسنة منه بعشر أمثالها إلىٰ أضعاف كثيرة لا يعلم قدرها إلَّا الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾[4].

قَوْلُهُ: «فمَنْ عَمِل خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله»:

معترفاً بفضله عليه أن وفَّقه في الدنيا إلىٰ حُسْن العمل، ثمَّ أثابه عليه بالجزيل. والأمر في قوله: «فَلْيَحْمَد الله» هو بمعنىٰ الخبر، وتفسيره: أنَّ الذين يجدون الخير في الآخرة يحمدون الله علىٰ ذلك. ولقد حدَّثنا القرآن الكريم عن مقالتهم الحمدَ في الآخرة نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[5]، وقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[6]، وقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا

---

(١) سورة القمر: الآيتان ٥٢، ٥٣.
(٢) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.
(٣) سورة المجادلة: الآية ٦.
(٤) سورة الزُّمَر: الآية ١٠.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٤٣.
(٦) سورة الزُّمَر: الآية ٧٤.

ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾[1].

قَوْلُهُ: «وَمَنْ وَجَد غَيْرَ ذَلِكَ فلا يلومَنَّ إلاَّ نَفْسَه»:

والأمر هنا أيضاً يُراد به الإِخبار، ومعناه: أنَّ مَن وجد غيرَ ذلك يلوم نَفْسَه حين لا ينفعه اللَّومُ، ولقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذا في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾[2]، فهم يمقتون أنفسهم ويلومونها عندما يجدون في الآخرة نتيجة أعمالهم الخاسرة وأنَّهم صائرون إلىٰ النار].

❑ ❑ ❑

(١) سورة فاطر: الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة غافر: الآية ١٠.

الحديثُ السادس عشر

ضرورة الإخلاص والتحذير من الشِّرْك

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: [(١)]أَنَا أَغْنىٰ الشُّركاءِ عن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

[رواه مُسْلِم]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَنا أَغْنَىٰ الشُّرَكاءِ عَن الشِّرْك»]:

أي: إنَّ من كمال الله تعالىٰ استغناؤه بذاته عن كلِّ شيءٍ سواه، وكلُّ ما سوىٰ الله مُفتَقِر إليه، فلا يُتَصوَّر عَقْلاً في حقه سبحانه صحةُ إشراكِ غيره معه في العمل من عبادة ودعاء ونحو ذلك، إذْ لا يقبل الشِّرك والشَّريك إلاَّ الناقص، والله سبحانه هو صاحب الكمال المُطلَق، فيستحيل عليه النقص والافتقار كما قال في حق نفسه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[(٢)].

---

(١) في الأصل: «أنّما أغنىٰ...»، وهو تصحيف.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٥.

قَوْلُهُ: «مَنْ عَمِل عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي»:

أي: توجّـه بعمله إليَّ وإلىٰ غيري، فجعـل ذلـك الغير بمـقـام الله في التوجُّه، وسوّاه به في القصد].

قَوْلُهُ: «تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»:

أَيْ: مع شِرْكه، أي: مـع عمله الـذي أَشرك فيه، فـلا أُثيبه عليه بل له العقاب.

وفي روايةٍ: «وشريكه»؛ أَيْ: أهملتُه مع شريكه، فلم أنظر إليهما نظر رحمة.

[وفي هذا الحديث بيانُ أنَّ الله تعالىٰ لا يقبل من عمل العبد إلاَّ ما كان له خالصاً وابتُغِيَ به وجهه. وأمّـا المُرائي الـذي يبتغي بعمله غيرَ وجه الله، ويطلب به ثناءَ الناس ومدحَهم وحظوظَ النفس، فهو واقع في الشِّرك الخفيِّ الذي يُخرجـه مـن رحمة الله تعـالىٰ ويستوجب عقابه، لأنَّه أبـىٰ العبوديّة الخالصة لربِّ العالمين، وجعل غير الله مثلَه في المقام، فهو في ظاهر حاله متوجِّه بعمله إلىٰ ربِّه الكريم وفي نيَّته يتوجَّه إلىٰ غيره أو يُشرِك معه سواه، ويا لها من إساءة تُحبِط الأعمال وتُورِد النيران جزاءً لمن أشرك بالله من حيث يظُنُّ أنَّه موحِّد لمولاه.

فلقد قسم العلماء الشِّرك إلىٰ قسمين:

أمّا أحدهما فهو الشِّرْك الجليُّ، وهو أن يُعلن العبد بلسانه وعقيدته أنَّ لله شريكاً، كما أعلنت النصارىٰ ذلك عندما قالوا: «إنَّ لله ثالث ثلاثة»، وكما أعلن مشركو العربِ ذلـك عندمـا عبدوا الأصنام والأوثـان، وقـالـوا: «إنَّما نعبدها لتقرِّبنا من الله زُلْفا».

وجزاء هذا الصنفِ من المشركين ألاَّ يغفر الله لهم يوم القيامة إذا ماتوا علىٰ ذلك الشِّرك قبل أن يتوبوا منه، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1]، وكما جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوَ لله نِدّاً وهو خلقك؟»[2].

وأمّا ثانيهما: فهو الشِّرْك الخفيُّ، ويعني عدم الإخلاص، وهو درجات:

أشدّها شرّاً أن يتوجه بالعمل كاملاً لغير الله، كنبأ الثلاثة الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ أنَّهم أوّل من يُسأل يوم القيامة، وهم:

«رجل آتاه الله العلم، فيقول الله تعالىٰ: ما صنعتَ فيما علمتَ؟ فيقول: يا ربِّ، كنتُ أقوم به آناء الليل وأطراف النَّهار، فيقول الله تعالىٰ: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يُقال: فلان عالم، ألا فقد قيل ذلك.

ورجل آتاه الله مالاً، فيقول الله تعالىٰ: لقد أنعمتُ عليك، فماذا صنعتَ؟ فيقول: يا ربّ، كنتُ أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالىٰ: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يُقال: فلان جواد، ألا فقد قيل ذلك.

ورجل قُتِل في سبيل الله تعالىٰ، فيقول الله تعالىٰ: ماذا صنعتَ؟ فيقول: يا ربُّ، أَمرتَ بالجهاد، فقاتلتُ حتىٰ قُتلِتُ، فيقول الله: كذبتَ،

---

(١) سورة النِّساء: الآيتان ٤٨، ١١٦.

(٢) رواه مسلِم.

وتقول الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يُقال: فلان شجاع، ألا فقد قيل ذلك.

قال أبو هُرَيْرة راوي الحديث، ثم خطّ رسول الله ﷺ علىٰ فخذي وقال: «يا أبا هريرة، أولئك أوّل خَلْقٍ تُسَعَّر نار جهنَّم بهم يوم القيامة»[1].

ومن درجات الشِّرك الخفيِّ أن يطلب العبد بالعمل مع وجه الله حظَّ النفس كالسُّمْعة والشُّهرة ومدح الناس له وثنائهم عليه. فلا يكون التوجُّه بالعمل خالصاً لله سبحانه، ومنه إذا تأثَّر بالمدح والذمّ حال قيامه بالعمل العباديّ علىٰ وجهه الشرعيِّ، ومنه أن يتحدَّث بالعمل حُبّاً منه لاطِّلاع الناس عليه.

والعبد البريء من لوثة هذا الضَّرْب من الشِّرْك النائي عن غوائله ومُهلِكاته، هو الذي يستوي عنده المدح والذمُّ، فلا يكترث لشيءٍ منهما، ويحرص علىٰ سَتْر عمله عن الخلق تجنُّباً لِحُظوظ النفس وتحرّياً للإخلاص كما جاء عن رابعة العدويَّة رحمها الله تعالىٰ، فقد ذكروا: أنَّها كانت تُسقِط من حسابها ما اطَّلع عليه الناسُ مِن أعمالها].



(١) ذكره بهذا اللفظ الغزاليّ في إحياء علوم الدين ٢٧٠٩.

الجزء الثاني



الحديثُ السابع عشر

الحَثُّ علىٰ الإنْفاق

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:
«قَالَ اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِق أُنْفِق عَلَيْكَ».

[رواه أحمد، والشَّيخان]

شرح الحديث

قَوْلُهُ: «أَنْفِقْ»:

أَمرٌ مِن الإِنفاق، أي علىٰ عِيالك والفقراءِ والمساكين إنْ وجدتَ سعةً.

[ونَفَق مالُه ونفِق كلاهما بمعنىٰ: نقص وقَلَّ، وقيل: فَنِي وذهبَ، وأَنفق مالَـه: الهمزة فيـه للتعدية، ومعناه: صرفه وبذلـه للمُعْتَـفِّين والمستحقِّيـن. وانتقال المال من يـد الكريم إلىٰ يد الفقير في ظاهره إنقاص للمال وإفناء لـه في يـد المُنْفِق. والعرب عبَّرت عـن الإنفاق بالإتلاف والإهلاك والإذهاب، فقال ابن جُدْعان:

لا أَحْبِـس المـالَ إلاَّ رَيْـثَ أُتْلِفُـه ... ولا تُغَيِّـرُنـي حـالٌ عـن الحـال

أراد بالإتلاف: إنفاق المال علىٰ الفقراء والمحتاجين.

وقال زهير بن أبي سُلْمىٰ في المديح:

أخي ثقةٍ لا تُذهِبُ الخمرُ مالَه ولكنَّه قد يُذهب المالَ نائلُهْ

أراد بذهاب المال: الإعطاء والإنفاق.

وشاع في الإسلام التعبير بالإنفاق عن بَذْل المال وصَرْفه إلىٰ المحتاجين والسائلين، وجاء التنزيل بذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾(١)، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾(٢)].

قَوْلُهُ: «أُنْفِقْ عَلَيْكَ»:

جواب الأمر بصيغة المضارع، [وهو وَعْد من الله تعالىٰ بالتفضّل علىٰ عبده المنفِق في سبيله بالخَلَف، وجاء التنزيل به،] ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾(٣)، [وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾(٤).

والتعبير بالإنفاق من الله علىٰ العبد هو من باب المشاكلة، والمراد به الخَلَف الذي أشار إليه سبحانه في قوله: «فهو يُخلِفه». وهذا الخَلَف يكون في الدنيا وفي الآخرة.

أمّا في الدنيا فيتجلّىٰ في مظاهر كثيرة؛ منها: البَرَكة في المال والرزق، والخَلَف المادّي المحسوس بحيث لا يَشعر المنفِق بأنّ ماله قد نقص منه

---

(١) سورة سبأ: الآية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٣) سورة سبأ: الآية ٣٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

شيء بعد الإنفاق، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[1]، وكما قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»[2]، وكما جاء في الحديث الصحيح: «ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلاّ ومَلَكان يَنزِلانِ، فيقولُ أحدُهما: اللّٰهُمَّ أَعطِ منفِقاً خَلفاً، ويقول الآخر: اللّٰهُمَّ أعطِ مُمْسِكاً تلفاً»[3].

وفي ذلك ذكر الفيروزآبادي صاحب القاموس في كتابه «بصائر ذوي التمييز» عن عمٍّ له أنه كان من أكابر الصالحين، أخبره: أنَّه كال كُدْساً من الطعام، ثمَّ أخرج منه الزكاة، ثمّ إنَّه كاله ثانيةً عند النَّقْل إلىٰ المنزلِ، فوجده لم ينقص شيئاً من الكَّيْل الأوَّل. وذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ في كتاب «الزهد»: أنَّ عامر بن عبد قَيْس كان يأخذ عطاءه، فيجعله في طرف رِدائه، فلا يلقاه أحد من المساكين يسأله إلاَّ أعطاه، فإذا دخل علىٰ أهله، رمىٰ بها إليهم، فيعدّونها، فيجدونها سواءً كما أُعطيها.

ومنها رفع البلاء وانكشاف الغماء وزوال الأمراض، كما قال رسول الله ﷺ: «باكِروا بالصَّدَقة فإنَّ البلاء لا يتخطَّاها»[4]، وكما جاء في الحديث: «داووا مرضاكم بالصدقة»[5]، وأمّا في الآخرة فيتجلّىٰ الخَلَف بمغفرة الذنوب وزيادة الأجور ورفع الدرجات عند الربِّ الكريم سبحانه وتعالىٰ، وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٦.

(٢) رواه مُسْلِم.

(٣) متَّفق عليه.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقيّ.

(٥) رواه الديلميُّ.

وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[1]، ونحو قول رسول الله ﷺ: «إنَّ الصدقة لتُطفىء عن أهلها حرَّ القبور»[2]، وقوله: «من تصدَّق بِعِدْل تمرةٍ من كسب طيِّب، ولا يقبل الله إلاَّ الطيِّب، فإنَّ الله يقبلُها بيمينه، ثمّ يُربِّيها لصاحبها كما يُربِّـي أحدُكم فُلُوَّه حتىٰ تكون مثلَ الجبل»[3]].

❑ ❑ ❑

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٣٣، ١٣٤.

(٢) رواه الطبرانيُّ في الكبير، وأورده الهيثميّ في مجمع الزوائد، وقال: فيه ابن لهيعة.

(٣) متَّفق عليه.

الحديثُ الثامن عشر

رَحْـمَـةُ اللّٰهِ

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ:
«قَالَ اللّٰهُ تَعَالىٰ: «سَبقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِـي» .

[رواه مُسْلِم]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «سَبقَتْ رَحْمتي غَضَبِـي»:

وفي رواية: «إنَّ رَحْمتي تَغْلِب غضَبِـي»:

المراد بالسَّبْقَ والغَلَبة هنا كثرة الرحمة وشمولُها كما يُقال: غلب علىٰ فلانٍ الكرمُ والشجاعة إذا كثُرا منه وأصبحا الصفة الغالبة عليه، لأنَّ رحمة الله وغضبه صفتان راجعتان إلىٰ إرادته للثواب والعقاب، وصفاته لا تُوصف بغلبة إحداها علىٰ الأخرىٰ، وإنَّما هو علىٰ سبيل المجاز للمبالغة، وجاء في التنزيل في إخباره سبحانه عن رحمته قولُه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال مُخبِراً عن نفسه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٨.

ومَن قرأ القرآن الكريم وجد فيه ذكر الرحمة من الله بمشتقّاتها المختلفة في ما يزيد علىٰ ثلاثمائة وعشرين موضعاً، بينما لا يتجاوز ذكر غضب الله في القرآن ثمانيةَ عشرَ موضعاً.

قَوْلُهُ: «رَحْمَتي»:

قال الراغب الأصفهانيُّ: الرَّحمة: رِقَّة تقتضي الإِحسان إلىٰ المرحوم، وقد تُستَعملُ تارةً في الرِّقَّة المجرَّدة وتارةً في الإِحسان المجرَّد عن الرِّقَّة نحو: رحمَ الله فلاناً.

وإذ وُصِف به الباري فليس يُراد به إلاَّ الإِحسان المجرَّد دون الرِّقَّة، وعلىٰ هذا رُويَ أنَّ الرَّحمة من الله إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميِّين رِقَّة وتعطُّف. فالرَّحمة مُنطوية علىٰ معنيين: الرِّقَّة والإِحسان، فركَّز الله تعالىٰ في طبائع الناس الرِّقَّة، وتفرَّد بالإِحسان. اهـ.

وجاء في الحديث الشريف في بيان رحمة الله عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خَلَق يوم خلق السموات والأرض مائةَ رحمةٍ، كلُّ رحمةٍ طِباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمةً فبها تعطفُ الوالدة علىٰ ولدها والوحش والطير بعضُها، علىٰ بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»[1].

ومن مظاهر الرحمة الواحدة التي أودعها الله في الأرض وأنزلها علىٰ خلقه في الدنيا الإسلامُ والقرآن والصلاة والرسل، وعلىٰ رأسهم خاتمهم سيدنا محمد ﷺ والرحمة في قلوب العباد، وغير ذلك من النِّعم التي أسبغها الله علىٰ الخلق أجمعين.

---

(١) رواه مُسْلِم.

فالرزق من رحمة الله لقوله تعالىٰ: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾[1]: أي رِزْق، وقوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾[2]، أي: رِزْقاً.

والهداية من رحمة الله لقوله تعالىٰ: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾[3]: أي هداية، لأنَّه كان سبب إيمانهم.

والنُّبوَّة من رحمة الله لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[4]، أي: بنبوَّته.

والمغفرة من رحمة الله لقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾[5].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «غَضَبِي»:

الغضب في أصل معناه هو ثوران دم القلب وإرادة الانتقام كما جاء في الحديث: «اتّقوا الغضب فإنَّه جمرة تُوقد في قلب ابن آدم، ألم تروا إلىٰ انتفاخ أوداجه وحُمْرةِ عينيه»[6].

والغضب من الله هو سُخْطه علىٰ مَن عصاه، وإعراضه عنه، ومعاقبته له، فإذا وُصِف الله تعالىٰ به أُريد به الانتقام دون غيره.

وهذا الحديث هو من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين، وجدير بالعبد الطالب للنجاة في الآخرة أن يكون ممن يستحقون رحمة الله، وهم

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٨.
(٢) سورة هود: الآية ٩.
(٣) سورة التوبة: الآية ٦١.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٥.
(٥) سورة الكهف: الآية ٥٨.
(٦) رواه الترمذيُّ، وقال: حديث حسن.

الـذين لـزمـوا سبيـل تـقـواه، وآمنوا بآيـاتـه، واتبعوا هـداه، فكانـوا بأمره مؤتمرين وبنهيه منتهين، وهذا ما أكّده المولىٰ سبحانه بقوله: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[1]، وبقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2].

وأمّا من أعرض عن الله، وكفر بآياته، وأبـىٰ طاعتَه وعصاه، فلن يكون مِن أهل الرحمة الإلـٰهيّة، بل هو من أهل السُّخْط والشقاء، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[3]].

❑ ❑ ❑

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

(٣) سورة طه: الآيات ١٢٤ ــ ١٢٦.

الحديثُ التاسع عشر
التقرُّب بين العبد وربّه

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ العَبْدُ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِذَا أَتَانِي مَشْياً أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

[رواه البُخاريّ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ العَبْدُ شِبْراً»:

جاء في رواية الإسماعيليِّ: «إذا تقَرَّبَ مِنِّي...»، وفي رواية الطيالسيّ: «إنْ تَقَرَّبَ منِّي»: والأصل في قرُب وتقرَّب أن يتعدّىٰ بمِن، وتعدِّيه بإلىٰ أبلغ لأنَّها تفيد معنىٰ الانتهاء.

وتقرُّبُ العبدِ إلىٰ الله هو توسُّلُه إليه بكلِّ ما فيه قُرْبةٌ من ذكرٍ وعملٍ صالحٍ وطاعةٍ.

قَوْلُهُ: «شِبْراً»:

الأصل فيه بُعْد ما بين رأس الخِنْصر ورأس الإبهام من الكفّ وهي مبسوطة مفرَّقة الأصابع.

والذِّراع: الأصل فيه بُعد ما بين المرفق ورؤوس أصابع الكفِّ.
والباع: الأصل فيه بُعد ما بين رؤوس أصابع اليدين إذا بُسِطتا يميناً وشمالاً، أي: هو كما قال الباجيّ: طول ذراعي الإنسان وعَضُديه وعرض صدره.

والهَرْوَلة: ضرب من المشي السريع، وهي دون العدو.

ووَصْفُ العبد بالتقرّب إليه سبحانه شِبْراً وذراعاً وإتيانه إليه مَشْياً، معناه التقرُّب إليه بطاعته وأداء مفترضاته ونوافله، وهو مجاز في تفاوت حجم الطاعة وقوة الإخلاص فيها.

ووَصْفُ اللّٰهِ تعالىٰ بالتقرُّب إلىٰ العبد هذه المسافات المتنوِّعة وإتيانِه إليه هرولةً يستحيل حملُه علىٰ الحقيقة، ويتعيَّن فيه المجاز، لأنَّ ذلك من صفات الأجسام، وحمله علىٰ الحقيقة يقتضي قطع المسافات وتداني الذوات، والله يتعالىٰ عن ذلك ويتقدَّس، فالمراد بتقرُّب الله من العبد لا قُرب الذاتِ والمكان، بل قربُ نعمه وألطافه منه، وبرِّه وإحسانه إليه، وترادف مننه عنده، وفيض مواهبه عليه.

قال الإمام ابن حجر العَسْقلاني: ويكون تقرُّبه سبحانه من عبده وإتيانه عبارة عن إثابته علىٰ طاعته وتقرُّبه من رحمته.

قَوْلُهُ: «أتيته هَرْوَلَةً»:

كناية عن سُرعة رحمة الله وثوابه إلىٰ العبد ورضاه عنه، وتضعيف الأجر له.

ونُقِل عن الطبريِّ: أنَّه إنَّما مثَّل القليل من الطاعة بالشِّبر، والمضاعفة من الكرامة والثواب بالذِّراع، فجعل ذلك دليلاً علىٰ مبلغ كرامته لمن أدمن علىٰ طاعته أنّ ثواب عمله له علىٰ عمله الضِّعف، وأنَّ الكرامة مجاوزة حدِّه إلىٰ ما يُثيبه الله تعالىٰ.

فالله سبحانه وتعالىٰ يجزي علىٰ القليل الكثير. وهذا ما أكَّده الكرمانيُّ في تفسير هذا الحديث حيث قال:

لمَّا قامت البراهين علىٰ استحالة هذه الأشياء (يعني تَقَرُّب الله من العبد بالذراع والباع والهرولة) في حقِّ الله تعالىٰ، وجب أن يكون المعنىٰ: مَن تقرَّب إليَّ بطاعة قليلة جازيته بثواب كثير، وكُلَّما زاد في الطاعة أزيد في الثواب، وإن كانت كيفيَّة إتيانه بالطاعة بطريق التأنّي يكون كيفيَّة إتياني بالثواب بطريق الإسراع.

والحاصل أنَّ الثَّواب راجح علىٰ العمل بطريق الكيف والكمِّ، ولفظ القُرْب والهرولة مجاز علىٰ سبيل المشاكلة أو الاستعارة أو إرادة لزومها. اهـ.

وهذا الحديث من أحاديث البشارة للمؤمنين، وفيه الحثُّ علىٰ أن يطرق العبد سبيل الطاعة والقُرْب مِن الله، وألَّا يستهين بيسير الأعمال من الطاعات والقُرُبات، فالعمل القليل مع الإخلاص يبلغ بصاحبه الأجر الكثير والثواب الجزيل، كما جاء في الحديث قال سيِّد المرسلين عليه الصلاة والسلام: «أَخلِصْ دينك يكفِكَ القليل من العمل»[1]، وكما جاء في الحديث أيضاً: «لا تحقرنّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقىٰ أخاك بوجه طَلِيقٍ»[2]. كما تضمَّن الحثَّ علىٰ أن يزداد العبد المؤمن من الطاعات، ويستكثر من القربات].

❑ ❑ ❑

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والحاكم.

(٢) رواه مُسلِم.

الحديثُ العشرون

الرَّحِم بين الوَصْلِ والقَطْع

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمـٰنِ بنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالَىٰ: أَنَا الرَّحْمـٰن، أَنا خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَها قَطَعْتُهُ».

[رواه أحمد، والبُخاريُّ في الأدب،
وأبـو داود، والتِّرمـذِيُّ، والحاكِـمُ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: «أَنَا الرَّحْمـٰن...»]:

الرَّحْمـٰن صفة بُنيت علىٰ وزن فَعْلان، لأنَّ معناه الكثرة، وهو بناء من أبنية المبالغة، ويعني عند أهل اللُّغة: ذو الرَّحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، أو هي صفة لمن وسعت رحمتُه كلَّ شيء أو هي صفة للمنعم بجلائل النِّعم، وكلُّ هذه المعاني لا يَكون إلاَّ لله سبحانه.

وبناءً علىٰ ذلك نقول: إنَّ الرَّحْمـٰن اسم مختصٌّ لله تعالىٰ مقصور عليه لا يجوز أن يُسمّىٰ به غيره ولا يُوصف، ألا ترىٰ أنَّه سبحانه وتعالىٰ قال:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾[1]، فعادَل به الاسم الذي لا يَشْرَكُهُ فيه غيره!

فكما أنَّه لا يجوز أن يسمّىٰ بلفظ الجلالة أحد سوىٰ الخالقِ العظيم سبحانه، فالله عند أهل الحقِّ هو عَلَمٌ علىٰ الذاتِ الواجبة الوجود، فكذلك لا يجوز أن يُسمّىٰ بالرَّحْمـٰن أحد سوىٰ الله سبحانه، بخلاف الرحيم الذي يجوز أن يُوصَف به غير الله تعالىٰ، فيُقال: رجل رحيم، ولا يُقال: رجل رحمـٰن.

وما فعله مُسَيْلِمة الكذّاب عندما سمّىٰ نفسَه رحمان اليمامة هو كُفْرصُراح إلىٰ جانب كفره بادِّعاء النبوَّة وافترائه الكذب علىٰ الله ربِّ العالمين.

والرَّحيم صفة لله سبحانه معناه: المنعم بدقائق النِّعم، وقيل: من خصَّت رحمته، قاله الفارسيُّ، ونصُّه: إنَّما قيل بسم الله الرَّحْمـٰن الرحيم، فجيء بالرحيم بعد استغراق الرَّحْمـٰن معنىٰ الرحمة لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالىٰ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾[2]. فالرَّحْمـٰن من عمَّت رحمتُه العالمين والرحيم من خصَّت رحمتُه المؤمنين].

قَوْلُهُ: «أَنَا خَلَقْتُ الرَّحِمَ»:

الرَّحِم هي القَرابة سواء قرُبت أو بعُدت [وكلُّ ما يتَّصل بالإنسان نسباً من جهة أبيه أو أمِّه.

قَوْلُهُ: «وَشَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِن اسْمِي»:

الاشتقاق هو أخذ كلمة من أخرىٰ،] وقوله: «اسْماً» وهو الرَّحِم، وقوله: «مِن اسْمِي»: وهو الرَّحْمـٰن.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

[وكلاهما مأخوذ من الرَّحْمة، وهي لغير الله تعني الرقَّة والشفقة والتعطُّف، وأمّا إذا كانت وَصْفاً لله فهي تعني الإِحسان المجرَّد من الرِّقَّة.

وقوله تعالىٰ: «شققتُ لها اسْماً من اسمي»، فيه تذكير بما للرَّحِم من حقِّ الوصل وفيض القلب نحوها بالرحمة والعطف، وكيف أنَّ الراحم لها يستحقُّ بفضل الله سبحانه أن تنالَه رحمتُه، ولقد جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرَّحمـٰن»[1].

قَوْلُهُ: «فَمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُهُ»:

المرادُ بوَصْلها العطف عليها ورعايتها وتفقُّد أحوالها وقضاء حاجتها ومواساتها. ولقد مدح الله مَن وصلها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[2]، وأوصىٰ بها، وبيَّن خطر المسؤوليّة عنها فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[3].

وأعلن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أنَّ وصل الرَّحم من المبادىٰء العظيمة التي بُعث بها إلىٰ الناس، فجاء عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنَّه قال: دخلت علىٰ النبيِّ ﷺ بمكَّة ـ يعني أوَّل النبوَّة ـ فقلتُ له: ما أنتَ؟ قال: «نبيٌّ»، فقلتُ: وما نبيٌّ؟ قال: «أرسلني الله»، فقلتُ: بأيِّ شيءٍ؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسرِ الأوثان، وأن يُوحَّد الله، ولا يُشرَكُ به شيئاً»[4].

---

(١) رواه أحمد وغيره، ورواه البخاريّ في الأدب المفرد.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢١.

(٣) سورة النساء: الآية ١.

(٤) رواه مُسْلِم.

وأوضحَ أنَّ صلة الرحم سبب البركة في الرزق والعُمُر، فقال: «من أحبَّ أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسَأ له في أثره فليصل رحمه»[1]. وأنَّها سبيل الفوز بالجنَّة، فلمّا سأله رجل قائلاً: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنَّة، فقال النبيُّ ﷺ: «تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتُقيمُ الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصل الرحم»[2].

وكان صلواتُ الله وسلاماته عليه القدوة الصالحة للمؤمنين في كلّ خلقٍ كريم وكلِّ خصلةٍ طيِّبة من خِصال الخير، ومنها صِلَة الرَّحم مهما كانت بعيدة ونائية، فجاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ جهاراً غير سرٍّ يقول: «إنَّ آل أبي فلان ليسُوا بأوليائي، إنَّما وليّي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رَحم أَبُلُّها ببِلالها»، والبِلال ــ بكسر الباء ــ الماءُ، وقيل: جمع بَلَلٍ، ومنه قولهم: انضَحوا الرَّحِم بِبِلالها: أي صِلُوها بصلتها وندُّوها.

قال ابن الأثير: وهم يُطلِقون النداوة علىٰ الصلة كما يُطلِقون اليُبْسَ علىٰ القطيعة، لأنَّهم لما رأوا بعض الأشياء يتَّصل ويختلطِ بالنداوة، ويحصل بينهما التجافي والتفرُّق باليُبْسِ، استعاروا البَلَّ لمعنىٰ الوَصْلِ، واليُبْسَ لمعنىٰ القطيعة، ومنه قول قَيْل بن عمرو بن الهُجَيْم:

وذِي نَسَبٍ ناءٍ بعيدٍ وصَلْتُه ... وذِي رَحِمٍ بَلَّلْتُها بِبِلالها

وَصِلة الرَّحِم درجات بعضُها أرفع من بعض، وأدناها رُتْبَةً تَرْكُ المهاجَرة، وصلتُها بالكلام ولو بالسلام، وفي حَديث النبيِّ ﷺ: «بُلُّوا

(١) متَّفق عليه.
(٢) متَّفق عليه.

أرحامَكم ولو بالسلام»[1]، أي: نَدُّوها بالصلة. ويختلف واقع صلة الرَّحم باختلاف قُدْرة الواصل وحاجة الرَّحم، فمنه الواجب ومنه المستحبُّ. ومَنْ وصل بعض الصِّلة ولم يصل غايتها لا يسمّىٰ قاطعاً إلاَّ إذا قصَّر عما يقدر عليه وينبغي له.

وإذا ترتَّب علىٰ الصِّلة مفسدةٌ كارتكاب منكر وفعل محرّم، وتضييع حقِّ الله، اتَّبعنا القاعدة الشرعية القائلة: «درء المفاسد مقدَّم علىٰ جلب المصالح»، وطاعة الله لا تُطلَب بمعصيته.

وأمّا إذا ترتَّب علىٰ الوصل شرٌّ أخفُّ من الشرِّ المترتِّب علىٰ القطع، دُفع أشدُّ الشرَّين بأخفِّهما، ولزم الوصل.

ومِنْ أعظم مظاهر الصِّلة أجراً، صِلَة الرَّحم الكاشِح، وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ، قال: «ليس الواصِلُ بالمكافىٰء، ولكنَّ الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[2]. وجاء في الحديث أيضاً: «أفضل الصدقة علىٰ ذي رَحمٍ كاشِحٍ»[3]، أي: المعرِض الجافي.

قَوْلُهُ: «وَمَنْ قَطَعَها قَطَعْتُهُ»:

هذا تهديد بسوء العِقاب لمن قطع رَحِمه، ولم يؤدِّ حقَّها من الوصل حال قدرته عليه، والعقاب من جنس الذنب، فمن قطع رحمه بلا عُذر شرعيٍّ قطعه الله عن رحمته ولطفه وإحسانه، ولقد جاء في الحديث عن أبي هريرة

(١) رواه البزّار، والطبرانيُّ، والبيهقيُّ.

(٢) رواه البخاريُّ.

(٣) رواه أحمد والطبراني والترمذي وأبو داود.

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلق الخَلْق حتّىٰ إذا فرغ منهم قامت الرَّحم، فقالت: «هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نَعَمْ، أما ترضَيْن أَنْ أصل مَن وصلكِ، وأقطع من قطعكِ؟ قالت: بلىٰ، قال: فذاك لك.

ثمَّ قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وجاء في الحديث: «لا يدخلُ الجنَّة قاطِعٌ»[2]، أي: قاطع رحم، قال الإمام النووي رحمه الله: هذا الحديث يتأوَّل تأويلَيْن: أحدهما حمله علىٰ من يستحلُّ القطيعة بلا سبب ولا شُبْهةٍ مع علمه بتحريمها، فهذا كافر يُخلَّد في النّار، ولا يدخل الجنَّة أبداً، والثاني معناه: ولا يدخلها في أوَّل الأمر مع السَّابِقين، بل يُعاقب بتأخُّره القَدْر الذي يُريده الله تعالىٰ. اهـ.

أي: مَنْ قطعها غيرَ مُستحِلٍّ لذلك، وكان قادراً علىٰ أداء حقِّها من الصِّلة.

ففي الحديث الحثُّ علىٰ صِلة الأرحام والتحذير من قَطْعها وبيانٌ لعاقبة كلٍّ من الواصل والقاطع.

قال تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[3]].



(١) متَّفق عليه.

(٢) متَّفق عليه.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

الحديثُ الحادي والعشرون

كبرياء الله وعظمته

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّهُ تَعَالىٰ: الكِبْرِياءُ رِدَائي والعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ في النَّار»[1].

[رواه أحمد، وأبو داود، وابنُ ماجَه]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «الكِبْرِياءُ رِدائي»:

الكِبْرياء علىٰ وزن فِعْلِياء: العظمة والملك، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، وقال الراغب في «المفردات»: والكِبْرياء الترفُّع عن الانقياد، وذلك لا يستحقُّه غير الله، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. اهـ.

وفرَّقوا بين الكِبْر والكِبْرِياء، فذهبُوا إلىٰ أنَّ الكِبْر هو إظهار عِظَم

(١) صحيح الإسناد.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٣٧.

الشأنِ، وهو في صفات الله تعالىٰ مدح، لأنَّ شأنه عظيم؛ والشأنُ هـٰهنا معنىٰ صفاته التي هي في أعلىٰ مراتب التعظيم. وأمّا الكِبْرياء فهي العزُّ والمُلك، والشاهد قوله تعالىٰ: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(1)، يعني المُلك والسلطان والعزَّة.

والتكبُّر: هو إظهار الكِبْر، مثل التشجُّع: إظهار الشجاعة، ولا يحقُّ إلاَّ لله سبحانه، فهو في صفاته لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾(2). وقيل: المتكبِّر هو المتعالي عن صفات الخلق، وقيل: هو المتكبِّر علىٰ عُتاةِ خَلْقه، وقالوا: التاء فيه للتفرُّد والتخصُّص لا تاء التعاطي والتكلُّف. وقيل: معنىٰ المتكبِّر في صفاته سبحانه: المُتعالي عن ظلم عباده.

قَوْلُهُ: «رِدَائي»:

الرِّداء هو من الثياب الملحفة، وكلُّ ما يستر البدن من أعلاه، ويُجَمَّل به. ويجب تأويله هنا بما يليق بذات الله تعالىٰ، ويمتنع حمله علىٰ الحقيقة لاستحالة الجِرميَّة والمكانيَّة عليه سبحانه، ووجوب مخالفة الذات الإلـٰهيَّة للحوادث. والتأويل يكون بحمله علىٰ المجاز، ويُراد به الصفة نحو قول العرب: اتَّزر فلان بالصلاح وارتدىٰ بالورع أي: اتصف بهما، وقولهم: فلان شعاره الزهد ودثاره التقوىٰ، لا يريدون الثوب الذي هو شعار ودِثار، بل معناه صفته. وقولهم: رجل غَمْرُ الرِّداء، أي: واسع المعروف. وعيشٌ غَمْرُ الرِّداء، أي: واسع خصيب.

---

(1) سورة يونس: الآية ٧٨.

(2) سورة الحشر: الآية ٢٣.

قال كثيِّر في المديح:

غَمْـرُ الـرِّداءِ إذا تبسَّـمَ ضـاحِكـاً غَلِقَـت لِضِحْكَتِـهِ رِقـابُ المـالِ

ونوع المجاز في الحديث استعارة، ومعناها هنا: أَنَّ الرِّداء يُلصَق بالإنسان ويلزمه، وهو جَمال له، فضُرِب ذلك مثلاً لكون الكبرياء باللَّـهِ تعالىٰ أحقَّ وله ألزم واقتضاه جلاله.

قَوْلُهُ: «والعَظَمَةُ إزاري»:

صفة لله تعالىٰ لا تكون لغيره كالكِبْرياء، والعظيم سبحانه: هو الذي جاوز قدْرُه وجلَّ عن حدود العقول حتىٰ لا تُتصوَّر الإِحاطة بِكُنهه وحقيقته، وجاء في الحديث قال النبيُّ ﷺ: «أمَّا الركوع فعظِّموا فيه الربَّ»، أي: اجعلوه في أنفسكم ذا عَظَمة. قوله: «إزاري»: الإِزار معروف، وهو ضرب من الثياب يُحيط بالبدن، ويجب حمله هنا علىٰ معنىٰ الصفة كما حُمل قوله: «رِدَائي»].

فيتقرَّر في قوله سبحانه: «الكِبْرِياء رِدَائي، والعَظَمة إِزَاري»، أي: هما صفتان مختصَّتان بـي، فلا يليقان إلاَّ بـي.

[وقال صاحب لسان العرب: ضرب بهما مثلاً في انفراده سبحانه بصفة العظمة والكِبْرياء، أي: ليسا كسائر الصفات التي قد يتَّصف بها الخلق مجازاً كالرحمة والكرم وغيرهما، وشبَّههما بالإِزار والرّداء، لأنَّ المتَّصف بهما يشتملانه كما يشتمل الرِّداء الإِنسان، وأنَّه لا يشاركه في إزاره وردائه أحدٌ، فكذلك لا ينبغي أَنْ يُشارِكَ اللَّـهَ تعالىٰ في هذين الوصفَين أحد. اهـ.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُما»:

المُنَازعة: المجاذبة والمخاصمة، والمراد بقوله: «نَازَعني» شاركني،

فيدَّعي لنفسه ما تفرَّدتْ بِه من الصفات. ومَن وصف نفسه من العباد بالكِبْرياء والعَظَمة فهو ذمٌّ، لأنَّهما في الحقيقة لله عزَّ وجلَّ، وأمّا عظمة العَبْد فكِبْرُه المذموم وتجبُّره الممقوت].

قَوْلُهُ: «قَذَفْتُهُ في النَّارِ»:

أي: رميتُه [. فيه بيان مصير المتكبِّرين والمدَّعين لأنفسهم ما اختصَّ الله به من الصفات دون خلقه. ولقد أشار الله تعالىٰ في القرآن الكريم إلىٰ مصير المتكبِّرين في الآخرة، فقال: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾[1]. وجاء في الحديث: «من تعظَّمَ في نفسه لقيَ اللَّـهَ، تبارك وتعالىٰ، وهو عليه غَضْبَانَ»[2].

والحديث له روايات أخرىٰ منها رواية الإمام مسلم ونصُّها كما جاء في صحيحه: «قال رسول الله ﷺ: «العِزُّ إزاره والكِبْرِياء رِداؤه، فمَن يُنازعني عذَّبتُه».

قال الإمام النوويُّ رحمه الله تعالىٰ: فالضمير في إزاره ورداؤه يعود إلىٰ الله تعالىٰ للعِلْم به، وفيه محذوفٌ تقديره قال الله تعالىٰ. اهـ.

ومنها رواية الحاكم ونصُّها كما جاء في مستدركه: «فمن نازعني ردائي قصمتُه».

وهذا الحديث فيه تحذير من عاقبة التكبُّر والتعاظم وذمٌّ للمتكبِّرين وتقريرٌ للمصير الذي ينتظرهم في الآخرة والذي من مظاهره الذلُّ والهوان في

---

(١) سورة الزُّمَر: الآية ٧٢.

(٢) رواه أحمد.

سـواء النيران، فقـد روىٰ ابـن عمر رضي الله عنهما عـن رسول الله ﷺ أنّـه قال:

«يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة أمثالَ الذرّ في صُوَر الرِّجال، يغشاهم الذلُّ من كلٍّ مكان، يُساقون إلىٰ سجنٍ في جهنَّم يُسمّىٰ بُولَس، تعلوهم نارُ الأنيار، يُسقَون من عُصارةِ أهلِ النار طينةَ الخبالِ»[1]].

❑ ❑ ❑

(١) رواه الترمذيُّ وقال: حديث حسن.

الحديثُ الثاني والعشرون

أَحبُّ العِبادِ إلىٰ اللّٰهِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:
«قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُم فِطْراً»(١).

[رواه أحمد، والتِّرمِذِيُّ، وابنُ ماجَه]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: «أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ»]:

أي: أكثر عبادي فوزاً بشديد محبَّتي لهم. ومحبَّة الله تعالىٰ للعبد إنعامه عليه وإثابته له وإحسانه إليه.

قال العلماء: المحبَّة في حقِّ العبد علىٰ ثلاثة أوجه:

محبَّةٌ لِلذَّة كمحبَّة الطعام والشراب والوقاع، ومحبَّةٌ للنفع كمحبَّة ما يُنتفع به، ومنه ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾(٢)، ومحبَّةٌ للفَضْل كمحبَّة أهل العلم بعضِهم لبعض لأجل العلم، ومحبَّة العُبّاد بعضِهم لبعض لأجل التنافس في عبادة الله.

---

(١) قال الترمذيُّ رحمه الله تعالىٰ: حديث حسن غريب.

(٢) سورة الصف: الآية ١٣.

ومحبّة العباد لله سبحانه إجلالُهم لقَدْره واعترافُهم بفضله وحرصُهم علىٰ مرضاته وبذلُهم النفسَ والمالَ في سبيله.

ومحبّتهم لرسول الله ﷺ تكون بصدق اتّباعه والذود عن سنّته واسترخاص النفس والمال دِفاعاً عن حرمته، كما كان من خُبيب بن عديّ وحبيب بن زيد وغيرهما من الصحابة النُّجباء أهل الحُبِّ والوفاء.

والمحبّة في العبد تنبع من افتقاره إلىٰ المحبوب.

وأمّا محبَّة الله تعالىٰ لعبده، فليس لها سوىٰ معنًى واحد، وهو الإحسان إليه والإنعام عليه وإجزال المثوبة له، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، قال الراغب: فمحبّة الله تعالىٰ للعبد إنعامه عليه، ومحبّة العبد له طَلَبُ الزُّلْفىٰ لديه. وبقوله جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾[2]، قال الراغب: أي يُثيبهم، ويُنعِم عليهم.

ومحبّة الله تعالىٰ للعبد تنبع من غناه عن المحبوب لقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[3]، فهي محبّة تفضُّلٍ وإنعام.

وقوله: «أَحَبُّ»: هذا اسم تفضيل ويجوز فيه حذف الهمزة نحو قول الشاعر:

وحَبُّ شيءٍ إلىٰ الإنسانِ ما مُنِعا

والأكثر إثباتُها. بخلاف (خير وشرّ) فالأكثر فيهما حذف الهمزة نحو ما رواه الديلميُّ عن أبي هريرة: «خير المؤمنين القانع وشرُّهم الطامع»].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٣) سورة فاطر: الآية ١٥.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَعْجَلُهُمْ فِطْراً»:

أي: أسرعُهم مُبَادرةً إلىٰ الفطر بعد تحقُّق غُروب الشَّمس، [لأنَّ في ذلك تحقيقَ الاستجابة لأمر الله سبحانه؛ فكما أمرهم بالصيام فأطاعوه، أمرهم بالإفطار فأجابوه، فكان ذلك تجسيداً لصدق إيمانهم به وتسليمهم له واستجابتهم لهديه.

وفي تعجيل الفطر حِكَم كثيرة: أعلاها وذِروة سنامها تحقيق الاستجابة المطلقة لله تعالىٰ، ودون ذلك إعداد الجسم لطاعة الليل من قيام وذِكْر وتلاوة قرآن بعد أن انقطع بياضَ النهار أثناء الصيام عن الشراب والطعام وسائر الغذاء، لأنَّ الجسم مَرْكَب تمتطيه الرُّوح في معراج عبوديَّتها لله، فإذا أرهقته أثقالُ التكاليف تَعِب، فلم يقوَ علىٰ حمل الروح فيما تصبو إليه من أداء القُرُبات طَلباً لسامِق الغايات، ومن هنا كره الشارع قيام العبد للصلاة ونفسه تتوق إلىٰ الطعام.

ولمّا سُئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن سبب إقلاله من صيام التطوع أجاب: إنَّ الصيام يُقعدني عن الصلاة، لأنَّه كان ضعيف الجسم دقيق الحجم، ورُبَّما أوهنته عبادة الصوم إن أكثر منها، فلا يقوىٰ جسمه بعد ذلك علىٰ حمل روحه في معارج سائر العبادات.

ومنها أنَّ الله أمرنا بالإحسان إلىٰ أنفسنا، ومن الإحسان إليها تعجيلُ فِطْرها، لأنَّها بمجرَّد غروب الشمس تحنّ إلىٰ الفِطْر وتتألَّم لتأخيره، ويكون كالعذاب عليها. لهذا نُهينا عن الوِصال في الصوم.

روىٰ الشيخان وغيرهما مرفوعاً: «لا يزالُ الناس بخيرٍ ما عجَّلوا الفِطْرَ»، وروىٰ الطبرانيّ مرفوعاً: «ثلاثةٌ يُحبُّها الله عزَّ وجلَّ: تعجيل الفِطْر، وتأخيرُ السُّحور، وضربُ اليدَين إحداهما علىٰ الأُخرىٰ في الصلاة».

ومنها مخالفة اليهود والنصارىٰ، لأنَّهم يؤخِّرون الإفطار، فلقد روىٰ أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة وابن حِبّان في صحيحيهما مرفوعاً: «لا يـزالُ الـدِّيـن ظـاهِـراً مـا عجَّـلَ النـاسُ الفِطْـرَ، لأنَّ اليهـودَ والنَّصـارىٰ يُؤخِّرون».

وروىٰ ابن حِبّان في صحيحه: «لا تزال أُمتي علىٰ سنّتي ما لم تَنْتَظِرْ بفِطْرها النّجومَ».

وكان رسول الله ﷺ عند صيامه لا يصلّي صلاة المغرب حتّىٰ يُفطر ولو علىٰ شربة ماءٍ. رواه أبو يعلىٰ وابن خزيمة وابن حِبّان في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه].



الحديثُ الثالث والعشرون

المتحابُّون بجَلال الله

عنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: المُتَحابُّونَ فِي جَلاَلي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ والشُّهَداء»[1].

[رواه التِّرمِذِيُّ]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «المُتَحابّونَ في جَلاَلِي»:

[أي: الذين عقدوا فيما بينهم رباط الحبِّ، فأَحبَّ بعضُهم بعضاً لا لملاحظة الدنيا ومقاصدها الخاسرة، كالجاه والمال والجمال والشهوات والمتاع الزائل، بل] لأجل ملاحظة جلال [الله سبحانه، فهو حُبٌّ خالص في الله ينبع من دافع إجلال المؤمن لربِّه وتعظيمه له، إذْ لم يُحبَّ أخاه المؤمن إلاَّ لكونه عبداً لله معترفاً بربوبيَّته ومقِرّاً بعبوديَّته مجسّداً ذلك بامتثال أمره ونهيه، فاستحقَّ أن يكافئه الله بحبِّ العباد له لِحُبِّه إيّاه، وهذا ما أوضحه النبيُّ ﷺ بقوله: «إذا أَحبَّ الله تعالىٰ العبد، نادىٰ جبريل: إن الله تعالىٰ يحبُّ فلاناً،

(1) صحيح الإسناد.

فأحبِبْهُ، فيُحبُّه جِبْريل، فيُنادي في أهل السماء: إنَّ الله يُحِبُّ فُلاناً فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء، ثُمَّ يوضع له القَبُول في الأرض»[١].

فالمؤمن المخلص في محبَّته لأخيه المؤمن هو الذي يدفعه إلىٰ حُبِّ أخيه كونُ المولىٰ سبحانه يحبُّه، ولولا حُبُّ الله له لما أحبَّه، إذْ لو أحبَّه وهو بغيض الله لما كان معظِّماً للمولىٰ سبحانه، وجاء في الدعاء: «أُحِبُّ بحبِّك من أحبَّك»[٢]].

قَوْلُهُ: «لَهُمْ مَنابِرُ مِنْ نُورٍ»:

[المنابر جمع مِنْبَر علىٰ زِنة مِفْعَل، وهو مَرْقاة الخاطب، وسُمِّي مِنْبَراً لارتفاعه وعُلُوِّه، فهو مأخوذ من النَّبْر ومعناه: ارتفاع الصوت].

ومعنىٰ الحديث: تُنصَب لهم منابر مِن نور يجلسون عليها. [وفيه إشارة إلىٰ علوِّ مقامهم عند الله يوم الدِّين. فلمّا ارتقَوا بالحُبِّ الخالص في الله عن جواذب الأرض وأهواء النفوس وشهوات الحياة، وبدَّدوا بنوره ظُلُماتِ البُغْض وغياهب الكراهيات، بلغوا في الآخرة رفيع الدرجات، ونالوا منزلة عالية عند الله تمنّاها النبيُّون والشُّهداء.

وقَوْلُهُ: «مِنْ نُور»:

فيه بيان لمعدن هذه المنابر وجوهرها؛ إنَّه النُّور الذي هو دليل الشَّرف والنعيم المقيم الصافي من الأكدار في جنَّةٍ قال فيها ربُّ العالمين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٣]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا

---

(١) متَّفق عليه عن أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذيُّ.

(٣) سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣.

﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾[1].

وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ أنَّ أهل النور في الدنيا هم أهل النور في الآخرة، فلمّا كانوا في الدنيا في غمرة أنوار الطاعة استحقُّوا أن يكونوا في الآخرة في غمرة أنوار المثوبة، قال تعالىٰ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٢﴾[2]].

قَوْلُهُ: «يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»:

الغِبْطة تمنِّي مثل ما للغير من الخير مع بقائه له، فهو محمود بخلاف الحَسَد [الذي يتمنّىٰ فيه الحاسد زوال النِّعمة عن المحسود، فهو مذموم، وقد أمر الله تعالىٰ بالاستعاذة به من الحاسِد والحَسَد فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾[3]، وقال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم والحَسَد؛ فإنَّ الحَسَد يأكل الحسناتِ كما تأكُلُ النار الحَطَب»[4]].

والمراد [بقوله: «يغبطُهم النبيُّون. . .»] أنَّهم يتمنَّون أن يكون لهم مثلهم، لأنَّهم لا يُسألون، والأنبياء لا بُدَّ من سؤالهم عن التبليغ. [فقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ٦﴾[5]، وسؤال الأنبياء والمرسلين ليس سؤال حساب لهم: هل بلَّغوا أو لم يُبلِّغوا، لأنَّه لا يُتصوَّر منهم شرعاً سوىٰ التبليغ، لوجوب اتِّصافهم بالأمانة وعدم الكتمان لما أُمِروا بتبليغه ولا لأدنىٰ شيءٍ منه.

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٢٥، ٢٦.
(٢) سورة الحديد: الآية ١٢.
(٣) سورة الفَلَق: الآية ٥.
(٤) رواه أبو داود عن أبـي هريرة رضي الله عنه.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٦.

ولكنَّ سؤالهم يوم القيامة لِتقريع الكافرين من أُممهم وتوبيخهم وإعذارهم وإقامة الحُجَّة عليهم إذا قالوا: ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾. ورغم هذا المقام العظيم الذي يقومه الأنبياء والمرسلون يتهيَّبون من جلال سؤالِ الله ــ تعالىٰ ــ لهم، ويتمنَّون لو لم يُسألوا، فيغبطون مَنْ لم يُسأل من عباد الله.

وخُصَّ الأنبياء والشُّهداء من بين سائر الخلق بالذكر في هذا الحديث إشعاراً بسموّ قدر المتحابِّين في الله ورفيع مقامهم عنده، حيث يغبطهم علىٰ مقامهم أجلُّ خلق الله منزلةً عنده ألا وهم الأنبياء والشُّهداء.

وهذا الحديث يحضُّ علىٰ التحابب في الله وتوثيق رابطة المودّة بين قلوب المؤمنين، ونبذ كلِّ ما يُمزِّق هذا الرباط الكريم، ويبيِّن مقامَ أولئك المتحابِّين بجلال ربِّ العالمين يومَ الدين].



الحديثُ الرابع والعشرون
النُّصْح للّٰه

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ:

«قَالَ اللّٰهُ تَعَالىٰ: أَحَبُّ مَا تَعَبَّدَنِي بِهِ عَبْدِي إِلَيَّ النُّصْحُ لِي»[1].

[رواه أحمد بسَنَدٍ حَسَنٍ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَحَبُّ ما تَعَبَّدَني بِهِ عَبْدِي إِلَيَّ»]:

التعبُّد معناه التنسُّك، وتعبَّد اللّٰهُ العبدَ بالطاعة، أي: استعبده. وتعبَّد المؤمنُ للّٰهَ تذلَّل له وخضع. وتعبَّد اللّٰهَ بالصلاة والصِّيام والذِّكْر وتلاوة القرآن، أي: جعلها مظاهر عبادته والتذلُّلِ له سبحانه.

وقوله: «به»: الباء للاستعانة، والمعنىٰ: إنَّ أحبَّ ما جعله عبدي سبيلاً لعبادتي، واتَّخذه واسطةً لتحقيق خضوعه وتذلُّلِه لي. والجار والمجرور في قوله: «إليَّ» متعلِّقان باسم التفضيل أحبُّ.

---

(١) ضعيف. انظر: «الجامع الصغير» للإمام السيوطي ٢/٦٧٨.

قَوْلُهُ: «النُّصْحُ لِي»:

هذا خبرُ أَحبُّ، ويجوز جعله مبتدأً مؤخَّراً وأحبُّ خبراً مقدَّماً، ويُصبح الترتيب: النُّصح لي أحبُّ ما تعبَّدني به عبدي.

وأصل النّصْح الخلوص، ومعناه في الحديث نقيض الغشِّ، ويقال: نصحتُ له، أي: أخلصتُ وصَدَقتُ، والنصيحة اسم للمنصوح به.

وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1]].

وقوله: «النُّصح لي»: بأن يعتقد فيه تعالىٰ الاعتقاد الصحيح، أو أنَّ المراد نُصح بعض الناس لبعضٍ بأن يأمر غيره بالطاعة وبكلِّ ما هو خير له في دينه ودنياه.

[وجاء في الحديث الصحيح عن أبي رُقَيَّة تميم بن أَوْسٍ الدَّاريِّ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الدِّين النّصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم»[2]، والنصيحة لله تعني ـ كما تقدَّم ـ صحّة الاعتقاد في وحدانيَّته سبحانه وإخلاص النيَّة في عبادته والامتثال المطلق لأمره ونهيه وطاعته الكاملة بمقتضىٰ شرعه دون أدنىٰ اعتراضٍ أو تقصير، وهذا أحبُّ مظاهر العبادة إلىٰ الله ربِّ العالمين.

والنصيحة لكتاب الله هي التصديق به والعمل بما فيه.

والنصيحة لرسول الله ﷺ هي: التصديق بنبوَّته واتباع سنَّته والانقياد لأمره ونهيه من غير اعتراضٍ ولا انقباض. بل بالحُبِّ والإِخلاص.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٩.

(٢) رواه مُسْلِم.

والنصيحة لأئمَّة المسلمين هي: طاعتهم في الحقِّ وإعانتهم علىٰ تطبيق شريعة الله وتحذيرهم من الجور وتجنيبهم للباطل.

والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلىٰ ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، وإعانتهم علىٰ ذكر الله تعالىٰ وحُسن عبادته.

وجاء في الحديث عن جرير بن عبد الله البَجَليُّ: بايعت رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة والنُّصْح لكلِّ مُسلِم»[1].

وفي تأكيد النُّصح لله ــ وهو بيت القصيد في الحديث ــ أن يتجنَّب العبد مختلف معاني الغشِّ في حقه سبحانه وتعالىٰ عن أن تضرَّه معصية أو تنفعه طاعة.

فمن غشَّ في صلاته، فلم يُحسِن وضوءها ولا أداءها وأنقص من أركانها وأشراطها وآدابها لم يكن ناصحاً لله، ومن غشَّ في صيامه فأفطر قبل تحلَّة صومه، ولم يدع قول الزور والعمل به وخاصم الناس وقاتلهم وشتمهم في صيامه لم يكن ناصحاً لله في صومه، ومن لم يؤدِّ زكاة ماله كما أمر الله فأخرج دون الواجب عليه، وأنفق من الخبيث وكذب في التقدير لم يكن ناصحاً لله في زكاة ماله.

ومن حجَّ رياءً وسمعةً، وأساء أثناء أداء المناسك بالقول والفعل، وارتكب المخالفات والمحظورات لم يكن ناصحاً لله في حجِّه. وقِس علىٰ ذلك مختلف حقوق الله علىٰ عباده إن خالفوا فيها منهجه الحقَّ كما أنزله.

فمن أراد سلامة دنياه وأُخراه فليكن ناصحاً لمولاه فيما أحبَّه وارتضاه.

---

(١) رواه البخاريّ ومُسْلِم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[1]، وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[2]].

❑ ❑ ❑

(١) سورة يسٓ: الآية ٦١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

الحديثُ الخامس والعشرون

جَزاء المتحابِّين في الله

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: وَجَبَتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَحَابِّينَ فيَّ، وَالمُتَجَالِسِينَ فيَّ، وَالمُتَبَاذِلِيْنَ فيَّ، والمُتَزَاوِرِينَ فيَّ»[1].

[رواه أحمد بسندٍ صحيحٍ، والطَّبرانيُّ، والحاكم، والبيهقيّ في شُعب الإيمان]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَجَبَتْ مَحَبَّتي»]:

هذا وعد من الله تعالىٰ للمتحابِّين في جلاله، وعبَّر عنه بالوجوب تحقيقاً لحدوثه وتطميناً للمؤمنين المتحابِّين في الله بيقين بلوغه.

وليس هناك ثواب ولا نعيم أجلُّ وأكرم من محبَّة الله تعالىٰ لعبده، لأنَّ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قال: «المرء مع مَن أحب»[2]، ومن

---

(١) صحيح الإسناد.

(٢) متَّفق عليه.

أحبَّه الله تعالىٰ أكرمه بمقام القرب منه، فتُلازمه فيوضات المولىٰ سبحانه وتجلِّياته ونفحاته وأنواره وأفضاله في الدنيا والآخرة.

وتقدَّم معنا أنَّ محبَّة الله للعبد تعني إنعامه عليه وإجزال المثوبة له.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «للمتحابِّين فيَّ»:

الذين جعلوا حُبَّ بعضِهم بعضاً خالصاً لله لا لدنيا يصيبونها ولا لمادَّةٍ يطلبونها، بخلاف أهل الدنيا الذين لا يرتفع حُبُّ بعضِهم بعضاً عن مستوىٰ الشهوات والمصالح الشخصيَّة، فلذلك لا يدوم رباطه قوِيّاً في قلوبهم، بل سرعان ما يتمزَّق، ويحلُّ مكانه التباغض والشَّقاء، والفُرقة والنِّزاع.

ولا ريب في أنَّ حبَّ المؤمن لأخيه المؤمن في الله دليلُ الإيمان ومن مظاهر طاعةِ الرَّحمـٰن، فقد جاء في الحديث الصحيح قال سيِّد المرسلين عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[(١)].

ومحبَّة العبد المؤمن لأخيه في الله ذات مظاهر عديدة أعلاها وذِروة سَنامِها الإيثار، ولقد أشار المولىٰ سبحانه إليه بقوله في وصف الأنصار: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[(٢)].

وهذا الإيثار له مظاهر كثيرة أهَمُّها وأعلاها:

الإيثار بالنفس، وفيه رُوي أنَّ خليفةً أمر بضرب رقاب ثلاثةٍ من الصالحين فيهم أبو الحُسين النوريُّ. فتقدَّم أبو الحسين ليكون أوّل من

---

(١) متَّفق عليه.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

تُضرَب عنقه، فعجب الخليفة لذلك، وسأله عن سببه، فقال أبو الحسين رحمه الله: أحببتُ أن أُوثر إخواني بالحياة في هذه اللَّحظات. فكان ذلك سبباً في نجاتهم جميعاً[1].

والإيثار بلقمة العيش، وفيه أخرج الدارقطنيّ وأبو الشيخ أنّ ابن عمر رضي الله عنهما اشتهىٰ سمكة، فلما جعلت بين يديه أتاه سائل، فأمر أن تُدفَع السمكةُ إلىٰ السائل، فلمّا سُئل عن سببه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيُّما امرئٍ اشتهىٰ شهوةً فردَّ شهوته، وآثر بها علىٰ نفسه غفر الله له»[2].

والإيثار بالمال، وفيه رَوىٰ المسعوديّ في «مروج الذهب» أنّ الواقديّ أصابته ضائقة وحضر العيد وكان له صديقان أحدهما هاشميّ، فكتب إلىٰ صديقه الهاشميّ يسأله التوسعة، فأرسل إليه كيساً مختوماً فيه ألف درهم، فما استقرّ المال في يده حتىٰ أرسل إليه صديقه الآخر يشكو إليه الفاقة، فأرسل إليه الكيس بحاله، ثمّ أرسل إليه صديقه الهاشميُّ يسأله عما فعل بالمال، فأخبره بما كان منه، فقال له صديقه الهاشميّ: إنَّك وجَّهت إليَّ وما أملك علىٰ الأرض إلاَّ ما بعثتُ به إليك، وكتبتُ إلىٰ صديقنا أسأله المواساة، فوجَّه إليَّ كيسي بخاتمي. قال الواقديُّ: فتواسينا الأَلْف فيما بيننا.

والإيثار بالملبَس، وفيه أنَّ صفوان بن سليم خرج من المسجد في ليلة باردة، وإذا برجل عارٍ، فنزع صفوان قميصه وكساه العاري، وبقي بلا قميص يرعد من البَرْد[3].

---

(١) «عوارف المعارف»، للسهروردي.

(٢) أخرجه الدارقطنيّ في الأفراد، ورواه أبو الشيخ في الثواب.

(٣) «أحسن المحاسن»، للرقي ١٧٨.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «والمُتَجَالِسِينَ فيَّ»:

أي: ما دعاهم إلىٰ أن يجلس بعضهم إلىٰ بعض إلاَّ حُبُّهم لله وإيمانهم به ورغبتهم بذكره، فهي مجالسة كالتي كان يدعو إليها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كما روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه، ونصُّ روايته كما جاءت في مسند الإمام أحمد: أنّ عبد الله بن رواحة لقي رجلاً من إخوانه فقال له: اجلس بنا نؤمن ساعة. فانطلق الرجل إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسولَ الله، إنَّ عبد الله بن رواحة يرغب عن إيمانك إلىٰ إيمان ساعة، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله ابن رواحة إنَّه يحِبُّ المجالسَ التي تتباهىٰ بها الملائكة».

فالجلوس حول موائد العلم الشرعيِّ وفي حِلَق الذكر والقرآن، وفي مجالس التناصح في الله والتواصي بالحقِّ والصبر يُفضي بأهله إلىٰ أعلىٰ درجات القَبول، ويُثمر محبّة الله لهم، وهي أقصىٰ ما يتمنّاه المؤمن لنفسه].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَالمُتَبَاذِلِينَ فيَّ»:

أي: بأن يبذُل أحدهم مالاً مثلاً لصاحبه لله تعالىٰ، وصاحبه يصنع كذلك لا علىٰ وجه مقابلة بل لله تعالىٰ، ولِذا أعطىٰ بعض المشايخ لمُريده ثوبَه، فذهب، ثمَّ قال له الشيخ: هل عندك شيء تعطيه لي، فقال: عندي سجّادتي، فأعطاها للشيخ، ثمَّ قال له الشيخ: لم أُرد أنَّها في مقابلة الثوب، بل إنَّما بذلته لك لوجه الله تعالىٰ، والقصد من ذلك الدخول في سلك حديث: «وَالمُتباذِلين فيَّ».

[ومن هذا التباذل التهادي حيث جاء في الحديث: «تَهادُوا تحابّوا»[1]. فالهديّة تزيد من المحبّة وتُرسِّخها في قلوب المؤمنين، وشرطها أن تكون خالصةً لله لا يُبتغىٰ بها مطامعُ الدنيا وشهوات الحياة.

---

(١) رواه عبد الرزاق وابن عساكر.

ومن التباذل في الله أن يسعىٰ المؤمن إلىٰ قضاء حاجة أخيه، ويسعىٰ أخوه إلىٰ قضاء حاجته لا بطلب الواحد منهما من الآخر، ومن أمثلة ذلك ما حدث من مسروق وخيثمة رحمهما الله؛ وهو أنَّه كان علىٰ مسروق دَين ثقيل، وكان علىٰ أخيه خيثمة دين، فذهب مسروق فقضىٰ دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضىٰ دين مسروق وهو لا يعلم.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «والمُتَزَاوِرِينَ فيَّ»:

الأصـل في الزَّوْر: المَيْـل، ويكون بفتح الواو، ومثله الزيارة مصدراً لِزار، والزائر هو الذي يميل إلىٰ مَزوره يعوده.

وتزاور القوم: زار بعضُهم بعضاً.

والمُتزاوِرُون في الله هم الذين يعودُ بعضُهم بعضاً في بيوتهم ومنازلهم وقُراهم وبُلدانهم لا يبتغون بذلك سوىٰ وجهِ اللّٰهِ تبارك وتعالىٰ. ويحقِّقون في تزاورهم هذا أموراً عظيمة من الخير والعمل الصالح، منها:

إدخال السرور علىٰ قَلْب المزور، وتفقُّد حاله والنّظر في شؤونه وقضاء حاجته، ومنها توثيق المحبّة وتمتين الأُخوَّة بين الزائر والمزور، ومنها التناصح والتواصي والتذاكر في الله.

ونظراً إلىٰ ما في التزاور في الله من خير كثير وفضل عميم، اهتمَّ رسول الله ﷺ به وحضَّ المؤمنين عليه فقال:

«إذا عادَ الرجلُ أخاه أو زاره قال الله عزَّ وجلَّ: «طبت وطاب ممشاك وتبوَّأتَ مِن الجنَّة مَنْزِلاً»[1].

---

(١) رواه أحمد في المسند، والترمذيّ، وابن ماجه.

وقال: «إذا أتىٰ الرجلُ أخاه يعودُه مشىٰ في خَرَافةِ الجنَّة حتىٰ يجلِسَ، فإذا جلس غمرته الرَّحمةُ، وإن كان غُدْوةً صلَّىٰ عليه سبعون ألف ملك حتىٰ يُمسي، وإن كان مساءً صلَّىٰ عليه سبعون ألفَ ملكٍ حتىٰ يُصبح»[1].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما مِن عبدٍ يزور أخاً له في الله عزَّ وجلَّ إلاَّ قال الله عزَّ وجلَّ في ملكوت عرشِهِ: عبدي زار فيَّ، عليَّ قِرىٰ عبدي، ولن أرضىٰ لعبدي بِقِرًى دونَ الجنَّة»[2]].

❑ ❑ ❑

(١) رواه أحمد في المسند وابن ماجه والحاكم ووافقه الذهبيُّ، ورواه البيهقيّ في السُّنن.

(٢) رواه أبو يعلىٰ في مسنده، وأبو نُعيم في الحلية، والهيثميّ في مجمع الزوائد.

الحديثُ السادس والعشرون

جزاء المجاهد في سبيل الله

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: أَيُّما عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي يَخْرُجُ مُجَاهِداً في سَبيلي ابتِغَاءَ مَرْضاتي ضَمِنْتُ لَهُ أَنْ أُرْجِعَهُ إِنْ رَجَعْتُهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَإِنْ قَبَضْتُهُ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ، وَأَرْحَمَهُ، وَأُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»[1].

[رَواه أَحمد بسندٍ صَحيحٍ، والنَّسائيُّ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي»]:

«أَيُّما» اسم شرط مرفوع علىٰ الابتداء وما زائدة للتوكيد، وهو يفيد العموم. ويصبح المعنىٰ: كلُّ عبدٍ.

ومِنْ في قوله: «مِنْ عِبادي» بيانيَّة، وتُفيد في سياق الحديث: أنَّ من فعل ذلك ولم يُقرَّ للَّـهِ بالعبوديَّة، ولم يعترف له بالربوبية، واتَّخذ إلـٰهاً سواه لم يكن له أن يضمن اللَّـهُ له بما جاء في الحديث.

---

(١) ضعيف الإسناد. انظر: «الجامع الصغير» للإمام السيوطيّ ٢/٦٧٨.

فلا ينال هذا الضَّمانَ الإلٰهيّ إلَّا من تشرَّف بالانتساب إلىٰ الله تعالىٰ بوَصْف الخضوع والعبوديَّة، فقال بلسان مقاله ولسان حاله ومعتقده: إني عبد الله.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يَخْرُجُ مُجَاهِداً في سَبِيْلِي»:

فيه بيان العمل الذي استحقَّ عليه العبد المؤمن الضَّمانَ الإلٰهيَّ. ونصَّ عليه: أنَّه الجهاد في سبيل الله.

ومعنىٰ الجهاد لغةً: المبالغة في العمل واستفراغ الوسع وبذل الجُهْد فيه.

ومعناه في مصطلح الشرع الإسلاميِّ: هو استفراغ ما في الوسع والطاقة في قتال الكُفّار ومحاربة الأعداء بالنفس والمال واللسان لتأمين حُريَّة نشر الدعوة إلىٰ الله وتوطيد أركان السلام في ظلِّ شريعة الإسلام.

والأصل في مشروعيَّته قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[(١)]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[(٢)]، وقوله مخاطباً رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾[(٣)].

وقوله عزَّ من قائل: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٧٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٣.

(٣) سورة التحريم: الآية ٩.

﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[١].

وجاء في السُّنَّة بيان فضل الجهاد في سبيل الله، وأنَّه من أفضل الأعمال عند الله لما فيه من بذل المال والروح وأغلىٰ ما يملك المجاهد في سبيله سبحانه. فقال رسول الله ﷺ: «لغَدْوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

وسئل رسول الله ﷺ: «أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله ورسولِه»، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله»، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «حجٌّ مَبْرور»[٣].

وجاء عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه قال: أتىٰ رجل رسول الله ﷺ فقال: أيُّ الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»[٤].

وأعلن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: أنَّ الجهاد في سبيل الله ذِرْوة سَنام الدِّين وسِياج مبادئه وحِصْنه المنيع، فقال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا أُخبرك برأس الأمر وعَمُودِهِ وذِرْوة سنامه؟»، قلتُ: بلىٰ يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإِسلام، وعَمُوده الصلاة، وذِرْوة سنامه الجهاد»[٥].

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.
(٢) متَّفق عليه.
(٣) متَّفق عليه.
(٤) متَّفق عليه.
(٥) رواه الترمذيُّ.

وحذَّر ﷺ من ترك الجهاد، وبيَّن أنَّ في تركه الخذلان والذلَّ والهوان فقال: «وما ترك قوم الجهاد إلاَّ ضربهم الله بذلٍّ»[1].

وقَوْلُه: «في سبيلي»، يخرج بذلك مَن لم يقاتل في سبيل الله، بل قاتل حميَّةً وعصبيَّةً، أو قاتل إظهاراً للشجاعة والقوَّة، أو قاتل للفوز بالغنيمة الدنيويَّة، فهذا لا يستحقُّ ما وعد الله تعالىٰ به المجاهد من الأجر والثواب والمغفرة والرحمة والجنَّة، لأنَّه لم يكن مخلص النيَّة لله تعالىٰ في جهاده. ولقد حدَّد الله تعالىٰ مسار الجهاد الحقّ الذي يفوز به العبد المجاهد بوعد الله، فقال: «في سبيلي».

وأكَّد رسول الله ﷺ ذلك عندما أتاه أعرابيٌّ، فقال: يا رسول الله، الرَّجل يُقاتِل للمغنَم، والرَّجُل يُقاتِل ليُذكَر، والرَّجل يُقاتل ليُرَىٰ مكانَه؟ وفي رواية: يُقاتل شجاعةً، ويُقاتل حميَّةً فمَن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله»[2].

والمجاهد وصف يُطلَق علىٰ من قاتل إعلاءً لكلمة الله بنيَّة خالصة.

وأمّا مَن طلب بقتاله مقاصد الدنيا وآثرها علىٰ الآخرة فهو مقاتل ولا يستحقُّ وصف المجاهد.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «ابْتِغَاءَ مَرْضَاتي»:

تأكيد لمضمون قوله: «في سبيلي»، أي: يطلب بجهاده أن أكون راضياً عنه، وهذا غاية ما يتمنَّاه المؤمن بطاعته لله سبحانه. والابتغاء: هو المبالغة في طلب الشيء والتماسه. والمَرْضاة: مصدر رضِي وهو ضدُّ

---

(١) رواه ابن مردويه.

(٢) متَّفق عليه.

السَّخَط، وفي التنزيل قال الله تعالىٰ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1]، وتـأويلـه: أنَّ الله تعـالىٰ رضي عنهـم أفعـالهم وقبلـهـا منهـم ورَضُوا عنه مـا جازاهم به.

ورضي اللّٰـهُ الطاعةَ من العبد أي قبلها وأحبَّها منه وأثابه عليها. ولا يقبل الله من أعمال العبد إلاَّ ما كان خالصاً له، فإخلاص العمل لله سبيلُ بلوغ رضاه، وجاء في الحديث قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يقبل العمل إلاَّ ما كان له خالصاً وابتُغي به وجهه»[2].

قَوْلُه تَعَالىٰ: «ضَمِنْتُ له»:

أي: كفَلت له، وحفظت ذلك له كما يُحفَظ الشيءُ في الحِرْز. وهذا مبالغة في تحقُّق فضل الله وإنعامه علىٰ المجاهد ويقين فوزه به.

وجاء في رواية أُخرىٰ: «من مات في سبيل الله فهو ضامِن علىٰ الله أن يدخله الجنَّة»[3]، قال ابن منظور، أي: ذو ضَمانٍ علىٰ الله، قال الأزهريُّ: وهذا مذهب الخليل وسيبويه لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[4] اهـ.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَنْ أَرْجِعَه إِذَا رَجَعْتُهُ»:

رَجَعه معناه: أعاده وردَّه وصَرَفه. هذا الفعل يستوي فيه لفظ اللازم والمتعدِّي، فمن الأوَّل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ...﴾[5]،

(١) سورة المجادلة: الآية ٢٢، سورة البيِّنة: الآية ٨.
(٢) رواه أبو داود والنَّسائيُّ.
(٣) أورده ابن منظور في اللِّسان.
(٤) سورة النِّساء: الآية ١٠٠.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

ومن الثاني قوله تعالىٰ: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾[1].

وجاء أيضاً أنَّ رَجَع لازم ومتعدِّيه بالهمزة: أَرْجَع، ومنه حكىٰ أبو زيد عن الضبِّيِّين أنَّهم قرؤوا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أن لا يُرجع إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾[2].

والمراد في الحديث أنَّ من كتب الله له السلامة، فأعاده إلىٰ أهله ووطنه حَيّاً ضمن له أن يعيده ظافِراً بأجرٍ وغنيمة.

والمُراد بالأجر: الثواب الذي أعدَّه الله تعالىٰ للمجاهدين في سبيله من الهداية في الدنيا والمغفرة في الآخرة والمنزلة العالية في الجنَّة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[3]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[4].

والمراد بالغنيمة ما أصاب المسلمون من أموال أهل الحرب وأوجفوا عليه بخيلهم وركابهم، والأصل فيها الفوز بالشيء من قولهم: غنِم الشيء غُنْماً: إذا فاز به.

وذهب الأصفهانيُّ في «المفردات» إلىٰ أنَّ الأصل في معنىٰ الغُنْم ما أصابه القوم من شياه الأعداء وظفروا به، ثمّ استُعمِل في كلِّ مظفورٍ به من جهة العدىٰ وغيرهم. وجاء في التنزيل ذكر الغنيمة بلفظ الجمع نحو قوله

---

(١) سورة طه: الآية ٤٠.

(٢) سورة طه: الآية ٨٩.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٤) سورة الصف: الآيات ١٠ ـــ ١٣.

تعالىٰ: ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾[1].

وتكرَّر في الحديث ذكر الغَنيمة والمَغْنم والغَنائم.

حكم الغنيمة:

يجب في الشَّرْع تقسيمها بعد إخراج السَّلَب إلىٰ خمسة أَسْهم: سَهْم لمن قسمه الله له، وثلاثة أسهم للفارس من المقاتلين، وسهم للراجل منهم. وهي تفترق عن الفيء بكونه ما أفاء الله من أموال المشركين علىٰ المسلمين بلا حرب ولا إيجافٍ عليه مثل جزية الرؤوس وما صُولحوا عليه بخلاف الغنيمة التي لا تكون إلاَّ بحرب الكُفّار وقِتالهم.

وجاء في التنزيل، قال تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ . . . ﴾[2].

حُكْم الفَيء:

يجب فيه في الشَّرع الخُمس لمن قسمه الله له، والباقي يُصرَف فيما يَسُدُّ الثُّغُور من خيلٍ وسلاحٍ وعُدَّةٍ وفي أرزاق أهل الفيء وأرزاقِ القضاة ومَن غيرهم ومَن يجري مجراهم. وجاء في التنزيل قال تعالىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾[3].

ولم تحلَّ الغنائم لأحدٍ مِن الأنبياء والمرسلين قبل رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الفتح: الآيات ١٨ ــ ٢٠.
(٢) سورة الأنفال: الآية ١.
(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

لقوله: «أُحِلَّت لي الغنائم ولم تحلَّ لنبيٍّ قبلي»[1].

وجاء في السيرة الحلبيَّة: «وأُحِلَّت لي الغنائم كُلُّها وكانت الأنبياء من قبلي يُحرِّمونها، فتأتي نار فتحرقها»، أي: كانوا يجمعونها، فتنزل عليها نار من السماء فتحرقها ما عدا الحيوانات، فإنَّها تكون ملكاً للغانمين دون الأنبياء، لأنَّهم لا يجوز لهم أن يأخذوا شيئاً من ذلك.

وعلىٰ هذا تكون الغنائم من خصائص أُمَّة النبيِّ محمد ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَإِنْ قَبَضْتُه أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»:

أَيْ: إن تَوفَّيْتُه وأَمتُّه شهيداً في المعركة ضمنتُ له في الآخرة: أن أغفر له ذنوبه بسترها ومحوها، فلا يبقىٰ عليه شاهد يوم الدِّين لا مَلَك كاتبٌ ولا جوارح ولا زمان ولا مكان ولا أيُّ شيءٍ يشهد علىٰ الإنسان يوم الحساب، بل يزيده الله من فضله بأن يجعل مكان سيِّئاته حسنات، لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[2]، والشهادة في سبيل الله هي في ذروة الأعمال الصالحة.

قَوْلُهُ: «وأَرْحَمَهُ وَأُدْخِلَهُ الجَنَّةَ»:

قدَّم الرَّحمة علىٰ دخول الجنَّة من باب تقديم الوسائل علىٰ المقاصد لأنَّها سبيل دخولها، لقوله ﷺ: «لَنْ يُدخِلَ أحداً عملُه الجنَّةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاَّ أن يتغمَّدني اللَّهُ بفَضْلِ رحمتِه...»[3].

---

(١) متَّفق عليه.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٣) رواه البخاريّ ومسلم عن أبـي هُريرة.

ولا يتعارض هذا مع قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾[1]، فالأعمال التي أمرنا الله بها والطاعات التي انتدبنا إليها، ووعدنا عليها الجنَّة، هي أيضاً سبيل دخولها، ولكن عن طريق رحمة الله، أي: أنَّ العمل يُدخِلنا في رحمة الله تعالىٰ، وبرحمة الله ندخل الجنَّة، وهذا ما يُؤكِّده قوله تعالىٰ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦﴾[2].

وقال العلماء: إنَّ العبد الطائع يَدْخل الجنَّة برحمة الله، ويترقَّىٰ في درجاتها بأعماله الصالحة.

مَاذَا أَعدَّ اللَّـهُ تَعَالىٰ للشهيد مِنَ الأَجْرِ والمَثُوبَةِ:

أنَّه حيٌّ في قبره يُرزَق فيه من فضل الله تعالىٰ رِزقَ إنعامٍ وإكرام، فلقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩﴾[3].

وأنَّ أرواح الشُّهداء في حوصلات طيور خُضْر في الجنّة، وذلك لقوله ﷺ: «أرواح الشُّهداء في حواصل طيرٍ خضرٍ معلَّقة في قناديل تحت العرش»[4].

وأنَّ دماء الشهيد تأتي يوم القيامة لونها لون الدم ورائحتها رائحة المِسْك، وذلك لقوله ﷺ: «ما مِن مكلوم يُكلَم في سبيل الله إلاَّ جاء يوم القيامة وكَلْمُه يَدْمىٰ: اللون لون دَمٍ، والريح ريح مِسْكٍ»[5].

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٤) رواه ابن زنجويه، وهناد عن أبي سعيد، وفي صحيح مسلم: قريب منه.

(٥) متَّفق عليه.

وأنَّ الله يغفر للشهيد ذنوبَه، ويؤمِّنه فتنة القبر، ويُنمِّي له عملَه، ويدخله الجنَّة، وألاَّ يكون بينه وبين الأنبياء إلاَّ درجة، وذلك لقوله ﷺ: «للشهيد عند الله سِتُّ خِصالٍ: يُغفَر له في أوَّل دفعةٍ، ويَرىٰ مقعده من الجنَّة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها»(١).

ولقوله: «لا يفضله النبيّون إلاَّ بدرجة النبوَّة»(٢).

ولقوله: «ما من ميِّت يموت إلاَّ خُتِمَ علىٰ عمله، إلاَّ من مات مرابطاً في سبيل الله فإنَّه يَنْمُو له عَمَلُه إلىٰ يوم القيامةِ وأمِن مِنْ فتنةِ القَبْرِ»(٣)].

❑ ❑ ❑

(١) رواه الترمذيُّ.

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وابن حِبّان، والبيهقيُّ، والطبرانيُّ.

(٣) رواه أبو داود والترمذيُّ.

الحديثُ السابع والعشرون

الصَّلوات الخَمْس

عَنْ أَبِـي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: افْتَرَضْتُ عَلَىٰ أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَواتٍ، وَعَهِدْتُ عِنْدِيْ عَهْداً أَنَّهُ مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ لِوَقْتِهِنَّ أَدْخَلْتُهُ الجَنَّة، وَمَنْ لَمْ يُحافِظْ عَلَيْهِنَّ فَلاَ عَهْدَ لَهُ عِنْدِي»[1].

[رواه ابن ماجه بسَنَدٍ حَسَنٍ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «افْتَرَضْتُ عَلىٰ أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَواتٍ»]:

(افتـرضـتُ)، أي: أوجبـتُ، وهـو بمعنـىٰ (فَـرَضَ)، وقيـل: يُفيـدُ مبالغته، كقولك: اكتسب إذا بالغ في الكسب، واقتلع الشجرة إذا بالغ في قلعها. وهذه المبالغة تُشعر باستمرار الوجوب، ولا يتعارض ذلك مع كون الفعل ماضياً، لأنَّ الأزمنة الثلاثة إذا أُسندت أفعالها إلىٰ الله تعالىٰ سواء، فلا

(١) هذا الإسناد فيه نظر من أجل (ضُبارة ودُوَيْد)، وهما من رجال إسناده. وذهب جلال الدين السيوطيُّ رحمه الله في «الجامع الصغير» إلىٰ تضعيفه ٦٧٨/٢.

تتميَّز باختلاف أزمنتها، وإنَّما يقع التمايز في صيغها باعتبارات أُخرىٰ، وصيغة الماضي في قوله تعالىٰ: «افترضتُ» تفيد قُوَّة الافتراض ولزومه في حقِّ المكلَّفين.

والفَرْض: ما أوجبه الله عزَّ وجلَّ، وسُمِّي بذلك لأنَّ له معالِمَ وحدوداً. والفريضةُ الاسم منه، وتجمع علىٰ فرائض، وفرائض الله: حدوده التي أمر بها، ونهىٰ عنها.

وقالوا: الفَرْض كالإيجاب من حيث أصل المعنىٰ وهو: القطع، وفرَّقوا بينهما بأنَّ الإيجاب يُقال اعتباراً بوقوعه وثباته، والفرض يقال اعتباراً بقطع الحُكم فيه.

قَوْلُهُ: «عَلىٰ أُمَّتِكَ»:

خِطاب للنبيِّ ﷺ. وأُمَّة كلِّ نبيٍّ مَن أُرسِل إليهم من كافرٍ ومؤمنٍ. وقال الليث: كلُّ قوم نُسِبوا إلىٰ نبيٍّ فأُضيفوا إليه فهُم أُمَّتُه. اهـ.

وأُمَّة محمد ﷺ كلُّ من أُرسِل إليه ممّن آمن به أو كفر. جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأُمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمّ لم يؤمن بالذي أُرسِلتُ به إلاَّ كان من أهلِ النار»(١).

قَوْلُهُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ»:

الصلوات جمعٌ واحدته صلاة، وهو اسم يوضع موضع المصدر، فتقول: صَلَّيت صلاةً ولا تقول: صلَّيت تصليةً. وقد تكرَّر في القرآن الكريم والحديث الشريف ذكر الصلاة، وهي العبادة المخصوصة التي تتضمَّن الركوع والسجود والقراءة والذكر وتُفتتح بالتكبير وتُختتم بالتسليم مع النيَّة.

---

(١) رواه مُسلِم.

وأصلها في اللُّغة الدُّعاء، فسُمِّيت ببعض أجزائها، وقيل أصلها في اللُّغة التعظيم، وسُمِّيت عبادتها بذلك لما فيها من تعظيم الربِّ تعالىٰ وتقديسه.

وقال بعضهم: أصل الصلاةِ من الصِّلاءِ، قال: ومعنىٰ صلّىٰ الرَّجل: أي أنَّه أزالَ عن نَفْسه بهذه العبادةِ الصِّلاءَ الذي هو نارُ الله الموقدة، وعلىٰ هذا يدلُّ وزن فعَّل في قولنا: صَلَّىٰ علىٰ معنىٰ الإزالة، كقولنا قشَّر الفاكهة إذا أزال قشرتها، ومرَّض المريض إذا أزال مرضه.

والصلاة التي فرضها الله تعالىٰ علىٰ المكلَّفين هي أفضل العبادات بعد الإيمان، لأنَّ الشريعة الإسلاميَّة فُرِضت بواسطة الوحي إلاَّ الصلاة فإنَّ الله تعالىٰ فرضها علىٰ نبيِّه وسائر أُمَّته بلا واسطة.

وكانت فرضيَّتها ليلة الإسراء الذي أكرم الله تعالىٰ به رسوله محمداً ﷺ قبل الهجرة بنحو خمس سنين علىٰ المشهور بين أهل السِّيَر، ورجَّح بعضهم أنَّه قبل الهجرة بعام لقوله ﷺ: «فرَض الله علىٰ أُمَّتي ليلة الإسراء خمسين صلاةً، فلم أزل أُراجعه وأسأله التخفيف حتّىٰ جعلها خمساً في كلّ يوم وليلة»[١]، فهي خمس في الأداء وخمسون في الأجر والثواب، لحديث أنس رضي الله عنه: «ثُمّ نُودي: يا محمد، إنَّه لا يُبدَّل القول لديَّ، وإنَّ لك بهذه الخمسة خمسين»[٢].

وفي فرضها أوَّل الأمر خمسين مع علمه سبحانه في الأزل إنَّها خَمْسٌ إظهارٌ لشرف النبيِّ ﷺ بقبول شفاعته في التخفيف، والله أعلم.

وقال بعضهم: لمّا كان في الصلاة تحقيقُ بالغِ الخضوع والتذلُّل لله تعالىٰ في ركوعها وسجودها وما يجري فيها من معاني الذكر والدُّعاء،

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد والنَّسائيُّ، والترمذيُّ: وصحَّحه.

فيؤدِّي ذلك إلىٰ أن يكون العبد أشدَّ قُرْباً من الله سُبحانه لقوله عليه الصلاة والسلام: «أقربُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجد»(١)، استحقَّت أن تُفْرَض في أعلىٰ مقامات القُرْبِ التي بلغها رسول الله ﷺ في إسرائه.

ولمّا كانت الصلاة من أبرز مظاهر تحقيق العبوديَّة لله ربِّ العالمين، فقد أوجبها علىٰ العبد المكلَّف خمس مرّات في كلِّ يومٍ وليلة في خمسة أوقات متفرِّقات ليظلَّ العبد مستشعراً معنىٰ عبوديَّته لربِّه متحقِّقاً بها في معظم أوقاته وأحواله تنفيذاً لهدي قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾(٢).

ومِمّا يؤكِّد سموَّ قَدْر عبادة الصلاة وفضلَها، أنَّها لم تنفكَّ شريعة منها وإن اختلفت صورُها بحسب شَرْعٍ فشَرْع. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾(٣)، وقال علىٰ لسان عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾(٤).

ومِمّا يدلُّ أيضاً علىٰ أهميَّتها وفضلها أنَّها أوّل ما فرض الله علىٰ عباده من دينهم وآخر ما يبقىٰ منه لقوله ﷺ: «إنَّ أوَّل ما افترض الله علىٰ الناس من دينهم الصلاة وآخر ما يبقىٰ الصلاة، وأول ما يُحاسب به الصلاة»(٥).

وأنَّ الله تعالىٰ فرضها علىٰ الحرِّ والعبد، والذكر والأنثىٰ، والحاضر والمسافر، والصحيح والمريض، والغنيّ والفقير.

---

(١) رواه مُسْلِم.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) سورة النِّساء: الآية ١٠٣.

(٤) سورة مريم: الآية ٣١.

(٥) رواه أبو يَعْلىٰ عن أنس رضي الله عنه.

وأنَّها آخر ما أوصىٰ به سيدنا رسول الله ﷺ لحديث أُمّ سلمة رضي الله عنها قالت: كان مِن آخر وصيَّة رسول الله ﷺ: «الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم»، حتىٰ جعل نبيُّ الله ﷺ يُلَجْلِجُها في صدره، وما يفيض بها لسانه ﷺ[1].

وكتب عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلىٰ عُمَّاله في الآفاق:

إنَّ من أهمِّ أموركم عندي الصلاة، فمَن حفظها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَعَهِدْتُ عِنْدِي عَهْداً»:

العَهْدُ: هو حِفْظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمِّي الموثق عَهْداً لوجوب الحفاظ عليه والوفاء به.

والعَهْد من الله تعالىٰ للعبد تفضُّلٌ وإنعامٌ، وتأكيدٌ لوَعْد الله وتطمينٌ لقلب العبد المؤمن بيقين حدوثه واستحالة إخلافه. فكما أنَّ العهد لا يصحُّ نقضه بين الخلق، فعدم صحَّة ذلك من الخالق آكد لكون النقض مذموماً والحفاظ علىٰ العهد محموداً، والمولىٰ سبحانه يجب له كلُّ كمال ويستحيل عليه كلُّ نقص، فلا يُتصوّر منه نقض العهود ولا تضييعها.

جاء في التنزيل قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَنَّهُ مَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ لِوَقْتِهِنَّ أَدْخَلْتُهُ الجَنَّةَ»:

---

(١) رواه أحمد في المسند بسند جيِّد.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩، وسورة الرعد: الآية ٣١.

حِفْظ الشيء هو تفقُّده وتعهُّده ورعايته، والمراد بالمحافظة علىٰ الصلاة القيام بها في غاية ما يكون من الطَّوْق وأداؤها بمراعاة أوقاتها وأشراطها وأركانها وآدابها، فيُحسِن وضوءها ولا يؤخِّرها عن أوَّل وقتها، ولا ينقص شيئاً من أركانها ولا شروطها، ويحرص فيها علىٰ استحضار الخضوع واستشعار الخشوع لله تعالىٰ.

ولقد مدح سبحانه المؤمنين المحافظين علىٰ الصلاة، وجعل ذلك من خصائص إيمانهم، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[1]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾[2]، وقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَدْخَلْتُهُ الجَنَّةَ»:

هذا هو العَهْد الذي عهده الله تعالىٰ عنده لمن حافظ علىٰ الصلوات الخمس بما شَرَعَ سبحانه؛ إنَّه الوعد بإدخاله الجنَّة، وهو غاية الفوز والفلاح قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾[4].

وقد يقول بعضهم: ليست الجنَّة أعلىٰ درجات الفوز والفلاح، فهناك القُرْب من الديَّان والنظر إلىٰ وجه الرَّحمٰن يفوق ما في الجنَّة من النعيم. ويجاب: بأنَّ النظر إلىٰ وجه الرَّحمٰن لا يبلغه إلاَّ أهل الجِنَان، فدخول جنَّة الخلود هو سبيل تقلُّب المؤمن فيها في ألوان النعيم التي أعلاها النظر إلىٰ الله

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ١، ٢.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩.
(٣) سورة المعارج: الآية ٢٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآيتان ١٠، ١١.

تعالىٰ كما قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[١]، فمن لم يدخل الجنَّة ولم يكن من أهلها لا يفوز بنعيم النظر إلىٰ وجه الرَّحمـٰن، لأنَّ الناس في الآخرة بعد الحساب يصبحون فريقَين فريق في الجنَّة وفريق في السعير.

وجاء في السُّنَّة بيان فضيلة المحافظة علىٰ الصلوات الخمس المفروضة، وما أعدَّ الله تعالىٰ للمصلِّين من الأجر والثواب العظيم.

فبيَّنت أنَّ أداءها علىٰ وقتها من أفضل الأعمال وأحبِّها إلىٰ الله تعالىٰ.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ؟ قال: «الصلاة علىٰ وقتها»[٢] وبيَّنت أنَّها سبيل مغفرة الذنوب ومحو الخطايا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أنَّ نَهَراً بباب أحدكم يغتسل منه كلَّ يومٍ خمسَ مرّات هل يبقىٰ من درنه شيء؟».

قالوا: لا يبقىٰ من درنه شيء، فقال ﷺ: «فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا»[٣].

وبيَّنت أنَّها سبيل رفع الدرجات عند الله تعالىٰ.

للحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «عليك بكثرة السجود، فإنَّك لا تسجد لله سجدة إلاَّ رفعك الله بها درجةً وحطَّ عنك بها

---

(١) سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه الشيخان.

خطيئة»[1]. وبيَّنت أنَّ المحافظة عليها سبيل إلىٰ حفظ الله تعالىٰ لصاحبها.

روىٰ الطبراني عن عبادة بن الصامت مرفوعاً: «إذا حافظ العبد علىٰ صلاته، فأقام وضوءها وركوعها وسجودها والقراءة فيها قالت له: حفظك الله كما حفظتني، وصُعِد بها إلىٰ السماء ولها نور».

وبيَّنت أنَّ من حافظ عليها يكون له نور وبرهان ونجاة يوم القيامة.

جاء في مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبّان عن ابن عمر أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر الصلاة فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبُرهاناً ونجاةً يوم القيامة».

وبيَّنت أنَّ الحفاظ عليهنَّ سبيل دخول الجنَّة.

فروىٰ الطبراني بإسناد جيِّد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من جاء بهنَّ مع إيمانٍ دخل الجنَّة: من حافظ علىٰ الصلوات الخمس علىٰ وضوئهنَّ وركوعهنَّ وسجودهنَّ ومواقيتهنَّ، وصام رمضان، وحجَّ البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وآتىٰ الزكاة طيِّبةً بها نفسه، وأدّىٰ الأمانة»، قيل: يا رسول الله وما أداء الأمانة؟ قال: «الغُسْل من الجنابة».

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ فَلاَ عَهْدَ لَهُ عِنْدِي»:

هذا تهديد ووعيد لمن لم يحافظ علىٰ الصلوات الخمس، فمصيره مُعَلَّق بالمشيئة الإلـٰهيّة متردِّد بين العفو والعذاب]، فإن شاء عفا، وإن شاء عذَّبه.

---

(١) رواه مُسْلِم.

[فقد روىٰ مالك وأبو داود والنسائيُّ وابن حِبّان في صحيحه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أشهد أنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلواتٍ افترضهنَّ الله عزَّ وجلَّ، مَنْ أحسن وضوءهنَّ، وصلاهنَّ لوقتهنَّ، وأتمَّ ركوعهنَّ وسجودهنَّ وخشوعهنَّ، كان له علىٰ الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل، فليس له علىٰ الله عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذَّبه».

ولقد توعَّد الله الذين يهملون الصلاة ولا يقيمونها علىٰ وجهها فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾[1]، وقال في بيان تثاقلهم إلىٰ أدائها: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾[2]، أي: لا يُخلصون في أدائها، وهذا وصف للمنافقين الذين يُبطِنون الكفر، ويظهرون أنَّهم مسلمون.

ويدمغ بالذمِّ واستحقاق الغيّ كلّ من ضيَّع الصلاة وآثر الشهوات، فيقول: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝﴾[3].

وجاء في السنَّة بيان خطر ترك الصلاة وإهمالها وتضييع أركانها؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «العَهْد الذي بيننا وبينهم الصلاةُ، فمَن تركها فقد كَفَر»[4].

---

(١) سورة الماعون: الآيتان ٤، ٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٢.

(٣) سورة مريم: الآية ٥٩.

(٤) رواه الخمسة، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح، ورواه ابن حبان والحاكم وصحَّحه.

وقال: «مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة، ومَنْ لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبـيّ بن خَلَف»[1].

وقال: «مَنْ فاتته صلاةٌ فكأنَّما وُتِر أهلَه ومالَه»[2]].

❑ ❑ ❑

(١) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

(٢) رواه ابن حِبّان في صحيحه.

الحديثُ الثامن والعشرون

مِنْ صفات الأُمَّة المحمّديّة

عَنْ أَبِـي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ لِعِيسىٰ: يَا عِيسىٰ، إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ بَعْدِكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمِدُوا وَشَكَرُوا، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ صَبَرُوا واحْتَسَبُوا، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ.

قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ يَكُونُ[1] لَهُمْ، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ؟

قَالَ: أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمي وَعِلْمِي»[2].

[رواه أحمد، والطَّبراني بسندٍ صحيحٍ، والحاكم والبيهقيُّ في شُعَب الإيمان]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يَا عِيسَىٰ»]:

هو رسول الله إلىٰ بني إسرائيل عيسىٰ بن مريم عليه السلام الذي بعثه الله تعالىٰ إليهم بعد موسىٰ بن عمران عليه السلام، وكان آخر أنبيائهم

---

(١) نصُّه في «الجامع الصغير»: (يكون هذا لهم).

(٢) ذهب الإمام جلال الدِّين السيوطيّ في «الجامع الصغير» ٢/ ٦٧٩ إلىٰ أنَّه موضوع.

ورسلهم، وهو مِنْ أُولي العزم، ورُتبته فيهم الرابع، وهم خمسة مجموعة علىٰ الترتيب في الفضل في قول بعضهم:

محمـد إبـراهيـم مـوسـىٰ كليمـه فعيسىٰ فنوح هم أولو العزم فاعلم

وسمِّي مسيحاً، لأنَّه لمَّا كَبِر كان سيّاحاً في الأرض، وقيل: سمّي بذلك، لأنَّه كان يمسح الضرَّ عن ذي العاهة.

وخصَّه الله تعالىٰ بأن ولدته أُمُّه السيِّدة مريم من غير بَعْلٍ، فكانت ولادته معجزة، وجنَّبه الله وأُمَّه الشيطان الرجيم بدعاء امرأة عمران كما جاء في قوله تعالىٰ علىٰ لسانها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾[1]، وجاء في الحديث الصحيح: قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ مولود من بني آدم يمسُّه الشيطان بأصبعه إلاَّ مريم بنت عمران وابنها عيسىٰ»[2].

وأنزل الله تعالىٰ عليه الإنجيل في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزَّبُور بألف عامٍ وخمسين عاماً.

ورفعه الله تعالىٰ إليه وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، فهو الآن حيّ في مكان لا يعلمه إلاَّ الله. وسوف ينزل في آخر الزمان، فيقتل الدجّال، ويكسر دِنان الخمر، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويحكم بشريعة سيِّدنا محمد ﷺ.

نُقِل عن مقاتل أنَّه قال: كان بين عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام قريب من ستمائة عام. ونُقِل عن الكلبيِّ أنَّه قال: كان بينهما خمسمائة وأربعون سنة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

(٢) رواه أحمد ومُسْلِم.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ بَعْدِكَ أُمَّةً»:

أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه. والمراد بقوله: إنِّي باعث أي مُوجِد وخالِق، وعبَّر عن إيجادهم بالبعث الذي هو بمعنىٰ الإرسال باعتبار كونهم أُمَّة نبـيٍّ سوف يُرسَل بعد عيسىٰ عليه السلام.

والأُمَّة هي كلُّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمَّا دين واحد أو زمان واحد أو مكـان واحـد. وتُطلَـق علـىٰ أهـل عصـرٍ مـا نحـو قـولـه تعـالـىٰ: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[1].

والمقصود بها في الحديث أُمَّة النبـيِّ محمد ﷺ الذين بعث فيهم ويمتدون علىٰ وجه البسيطة منذ مبعثه وإلىٰ نهاية الدنيا، فيدخل فيهم الأبيض والأسود والأصفر والأحمر والعربـيُّ والأعجميُّ، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[2]، وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[3]، ولقوله ﷺ: «بُعثت إلىٰ الناس كافَّة»[4]، وقوله: «بُعثت إلىٰ الأحمر والأسود»[5].

قَوْلُهُ: «إِنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّون حَمِدُوا وَشَكَرُوا»:

أي: إن وصل إليهم ما يُحبُّون من الخير، ويتمنّونه لأنفسهم، فنالوه بفضل الله وإنعامه، أثنَوا علىٰ المولىٰ سبحانه بما هو أهله، وفاهت ألسنتهم بمختلف معاني تبجيله وتعظيمه. وشكروه علىٰ إنعامه وإفضاله عليهم قولاً بألسنتهم واعتقاداً بقلوبهم وعملاً بجوارحهم.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤٥.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٤) رواه ابن سعد عن خالد بن معدان مرسلاً.

(٥) رواه ابن سعد عن أبـي جعفر مرسلاً.

ولقد ذكر العلماء أنَّ الفرق بين الحمد والشكر هو أنَّ الشكر يكون في مقابَلَة نعمةٍ، وأمّا الحمد فلا يلزم كونه في مقابَلَة نعمةٍ، وعلىٰ هذا يكون الحمد أعمَّ من الشُّكر.

وقالوا: إنَّ الشكر يكون باللِّسانِ والجَنانِ والأركان؛ فشكر اللِّسان هو الثناء علىٰ المنعم سبحانه بما هو أهله وإظهار إجلاله وتعظيمه. وشكر الجَنان: هو الاعتقاد بأنَّه المنعم الحقُّ بجلائل النعم ودقائقها، وأنَّه ليس لأحد من الخلق فضل مع فضله.

وشكر الأركان العمل بطاعة الرَّحمـٰن، واستعمال النعمة بما أمر من وجوه الاستعمال، وتجنُّب عصيانه بها.

وعلىٰ هذا قالوا: الشُّكر في العبوديَّة: ظهور أثر نعمة الله علىٰ لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلىٰ قلبه شهوداً ومحبَّةً، وعلىٰ جوارحه انقياداً وطاعة.

وجاء في الحديث: «الإيمان نصف شكر ونصف صبر»[١].

ونظراً إلىٰ أهميَّة الشُّكر في معيار الإيمان وثقله في ميزانه فقد أمر الله تعالىٰ به فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[٢]، ونهىٰ عن ضده فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[٣] فكُفر النِّعمة ضدُّ الشُّكر. وجعله خُلُقَ خاصَّة خلقه من أنبيائه ورُسُله فقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾[٤]، وقال عن نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا

(١) رواه البيهقيُّ.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٢.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٢.
(٤) سورة النحل: الآية ١٢١.

شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾[1].

وأثنىٰ علىٰ أهله فقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

ووعد عليه بأحسن الجزاء فقال: ﴿ وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[3].

ورضيه لعباده فقال: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[4].

ووعد عليه المزيد فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[5].

وحقيقة الشُّكر في الواقع العمليِّ تتجلَّىٰ في أمرَيْن اثنين هما: الإكثار من الطاعات وترك المعاصي والمخالفات. ويدلُّ علىٰ الأوَّل جواب النبيِّ ﷺ عندما سألته السيدة عائشة رضي الله عنها وقد قام الليل حتىٰ تفطّرت قدماه: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: «أفَلا أكُونُ عَبْداً شَكوراً»[6].

ويدلُّ علىٰ الثاني جواب الإمام الجُنَيْد رحمه الله تعالىٰ، عندما سأله أستاذه الإمام السريُّ السَّقَطيُّ: ما الشّكر؟ فقال: ألاَّ يُستعان بشيءٍ مِن نِعَمِ الله علىٰ معصيته، قال السريُّ: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣.
(٢) سورة سبأ: الآية ١٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.
(٤) سورة الزُّمر: الآية ٧.
(٥) سورة إبراهيم: الآية ٧.
(٦) متَّفق عليه.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ صَبَرُوا وَاحْتَسَبُوا»:

أي: إنْ وصل إليهم ما يكرهونه من الأذىٰ والابتلاء، فنالهم منه شيءٌ لـم يَسخطـوا ولـم يُظهِـروا الشكـوىٰ والتـذمُّـر والاعتـراض، وإنَّمـا يقـابلـون المصائب إذا نزلت بهم بالرضىٰ عن الله والتسليم لما قضاه، ويَتَدَرَّعون بالصبر علىٰ البلاء، ويَحتسِبون أجره عند الله استجابةً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾[1]. ويتَّخذون الصبر علىٰ ما أصابهم من المكروه سبيلاً إلىٰ مغفرة ذنوبهم ورفع درجاتهم عند ربِّهم كما جاء في الحديث الصحيح: «ما يُصيب المُسلِم مِنْ نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا مَخْمَصة حتّىٰ الشوكة يُشاكُها، إلاَّ كفَّر اللَّـهُ بِها مِنْ خَطَاياه»[2].

فالمؤمن مِن هذه الأُمَّة هو علىٰ خيرٍ في أحواله كُلِّها وهذا ما أكَّده الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كُلَّهُ له خيرٌ، وليس ذلك لأَحَدٍ إلاَّ للمؤمِن: إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءٌ شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضَرّاء صَبَر فكانَ خيراً له»[3].

فهو يتقلَّب في أحضان الإيمان بين الشُّكر علىٰ السرّاء والصَّبْر علىٰ الضرّاء.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَلاَ حِلْمَ وَلاَ عِلْمَ»:

الحِلْمُ: هو ضدُّ الغضب والجهل، ومعناه كَظْم الغيظ وضبط النفس والطَّبْع عن هيجان الغضب. والوصف منه للمذكَّر حَلِيم علىٰ وزن فَعِيل،

---

(١) سورة الزّمر: الآية ١٠.

(٢) متَّفق عليه.

(٣) رواه مُسْلِم.

وقيل معناه: العقل، ويُجمع علىٰ أحلام وحُلوم، وفي التنزيل العزيز قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾[1]؛ أي: عقولهم، وفي الحديث: «لِيَلِيَنِي منكم أُولوا الأحلام والنُّهىٰ»[2]؛ أي: ذوو الألباب والعقول. وفي الشعر من المحتجِّ به قول جرير:

هـل مـن حُلُـومٍ لأقـوامٍ فتُنـذِرَهـم ... ما جرَّب الناسُ مِنْ عضِّي وتَضْرِيسِي

وليس الحِلْم في الحقيقة هو العقل، لكن فسَّروه بذلك لكونه من مُسَبَّباتِ العقل.

وهو خُلُق كريم يُمدَح به صاحبه. وقد وصف الله تعالىٰ به أنبياءه وأثنىٰ به عليهم، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾[3]، وقال في آية أخرىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾[4].

بل جعله الله سبحانه من صفاته وأخلاقه، فقال عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٥٥﴾[5]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾[6]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾[7].

وأحبَّه الله تعالىٰ في عباده وجعله من كريم خِصالهم وجميل أخلاقهم، التي ترقىٰ بهم إلىٰ منازل قربه، فروىٰ الإمام مسلم رحمه الله عن ابن عبَّاس

---

(١) سورة الطّور: الآية ٣٢.
(٢) رواه مُسْلِم.
(٣) سورة هود: الآية ٧٥.
(٤) سورة الصافّات: الآية ١٠١.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.
(٦) سورة التغابن: الآية ١٧.
(٧) سورة الإسراء: الآية ٤٤، وسورة فاطر: الآية ٤١.

رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ للأشجِّ: «إنَّ فيك خَصلتين يُحبُّهما الله ورسوله: الحِلْم والأناة».

والعِلْم: هو ضدُّ الجهل، وقد أمر الشارع الحكيم به أشرفَ خلقه ﷺ وحضَّه علىٰ الاستزادة منه، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾[1]، وأثنىٰ علىٰ أهله، ورفع من قدرهم بين سائر خلقه، فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[2]. وأشار إلىٰ أنَّ العلم يفضي بصاحبه إلىٰ الإيمان، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾[3].

والعلم في حياة الإنسان إصلاح وإعمار، والجهل إفساد ودمار. وما اهتدىٰ قوم إلاَّ بعلم، ولا ضلُّوا إلاَّ بجهل.

وحقيقة العلم واحدة من حيث أنَّه سراج الهداية إلىٰ الله، وأنواعه مختلفة وسُبُله متعدِّدة.

وقالوا: إنَّ العلم علمان: علم الدنيا، وعلم الآخرة.

وعلم الآخرة هو علم الدِّين، وهو أشرف العِلْمَين وأكرمهما وبه بُعث الأنبياء والمرسلون، وعلىٰ هديه تكون نجاة الإنسان وسعادته في الحياة وفي المعاد.

وعِلْم الدنيا لا يسمو بغاياته، ولا تطيب ثماره، ولا تعظم آثاره إلاَّ إذا قام علىٰ أساس علم الآخرة، لأنَّ صلاح الدنيا منوط بصلاح الآخرة. ولا

---

(١) سورة طه: الآية ١١٤.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٣) سورة الروم: الآية ٢٢.

يشقىٰ الإنسان بمعارف الأرض وعلومها إلاَّ إذا تجرَّد من الإيمان، وهذا ما أكَّده الله تعالىٰ بقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1].

وأشرف علوم الآخرة علم التوحيد، ودونه منزلةً علم السُّنَّة، ودون الثاني منزلةً علم الفقه وما اشتمل عليه من معرفة أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب والعلاقات. وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «العِلْم ثلاثة فما سوىٰ ذلك فهو فضل: آية محكَمة، وسُنَّة قائمة، وفَرِيضة عَادِلة»[2].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «قَالَ: يا رَبِّ»:

هنا نُزِّل المنادىٰ القريب منزلةَ البعيد تعظيماً له وإشارةً إلىٰ علوِّ مكانته وسُموِّ منزلته، لأنَّ الله تعالىٰ قال عن نفسه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «كَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ وَلاَ حِلْمَ وَلاَ عِلْمَ؟»:

أي: كيف يبلغون هذه المكانة وليس لهم حِلْم ولا عِلْم؟

لأنَّ الحمد والشكر والصبر والاحتساب لا تكون هذه الخصال إلاَّ ممّن اتَّصف بالعِلْم وتزيَّن بالحِلْم، وأمّا من تجرَّد منهما فلا تُتصوَّر منه، لأنَّ الخير لا ينبت في تربة الجهل والغضب.

---

(١) سورة طه: الآيات ١٢٤ ــ ١٢٦.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم.

(٣) سورة ق: الآية ١٦.

أو يكون المراد ما معنىٰ: ولا حِلْمَ ولا عِلْمَ؟].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي»:

وحينئذٍ يكون لهمُ حِلْمٌ [وَعِلْمٌ]، وأجيب عن معنىٰ النفي السابق: بأنَّ المراد لا حِلْمَ ولا عِلْمَ لهم بقُدرتهم واكتسابهم، وإنَّما ذلك من عطائي وفَضْلي. [ولا ريب في أنَّ ما كان مِن فضل الله وعطائه واختصَّ به من شاء من عباده أعلىٰ وأعظم ممّا بلغه الإنسان بسعيه واكتسابه].

❑ ❑ ❑

الحديثُ التاسع والعشرون

مَغْفِرة الذُّنوب

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَىٰ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ وَلاَ أُبَالِي مَا لَمْ يُشْرِكْ بِـيْ شَيْئاً»(١).

[رواه الطَّبرانيُّ بسندٍ صحيحٍ، والحاكم]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَىٰ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ»]:

مَنْ: اسم شرط، وعَلِمَ: فعل الشرط، وهو من أفعال القلوب ونوعه اليقين، ومعناه: اعتَقَد، وأَيقَنَ.

وقوله: «أنِّي ذو قُدْرَةٍ»، للقُدْرة ثلاثة معان: الأوَّل: القوَّة، والثاني: الغنىٰ واليسار، والثالث: المُلْك، وهذه الثلاثة تدخل في معنىٰ الاستطاعة، وهي المرادة في هذا الحديث.

وقال الراغب الأصفهانيُّ: القُدْرة إذا وُصِفَ بها الإنسان فاسم لهيئةٍ له

---

(١) حديث حسن الإسناد. انظر: «الجامع الصغير» للإمام السيوطيِّ ٢/ ٦٨٠.

بها يتمكَّن من فعل شيءٍ ما، وإذا وُصف الله تعالىٰ بها فهي نفي العجز عنه، ومحالٌ أن يُوصَف غيرُ الله بالقُدرة المطلقة معنًى، وإنْ أُطلِق عليه لفظاً، بل حقُّه أن يُقال: قادر علىٰ كذا، ومتىٰ قيل: هو قادر فعلىٰ سبيل معنىٰ التقييد، ولهذا لا أحدٌ غيرُ الله يُوصَفُ بالقُدْرة من وَجْهٍ إلاَّ ويصحُّ أَنْ يُوصف بالعجز من وجهٍ، والله تعالىٰ هو الذي ينتفي عنه العجز من كلِّ وجه. اهـ.

والقُدْرة عند أهل التوحيد هي إحدىٰ صفات المعاني التي تجب لله تعالىٰ، ومعناها: إيجاد الممكن وإعدامه علىٰ وفق الإرادة. ولقد وصف الحقُّ سبحانه نفسه بالقُدْرة بمعناها اللائق به وهو نَفْي العجز عنه وإثبات القُوَّة والاستطاعة لِذاته علىٰ فعل ما يريد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾[2].

والمغفرة هي أهون علىٰ الله من خَلْق الإنسان وخَلْق السموات والأرض، فيستحيل في العقل تصوُّر عجز الله عنها، وقد ثبت له سبحانه القدرة علىٰ إيجاد ما هو أعظم منها.

ولقد وصف الله تعالىٰ نفسه بقدرته علىٰ مغفرة ذنوب عباده مهما بلغت، فقال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾[4]. وجاء في الحديث: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَالَ أَستغفِر

---

(١) في مواضع كثيرة في القرآن.
(٢) سورة فاطر: الآية ٤٤.
(٣) سورة الزُّمَر: الآية ٥٣.
(٤) سورة طه: الآية ٨٢.

الله الذي لا إلـه إلاَّ هو الحيُّ القيّومُ وأتوب إليه، غُفِرت ذنوبه وإنْ كانَ قد فرَّ من الزَّحْفِ»[1].

وفي قوله: «أنِّي ذو قُدْرةٍ»: سَدَّت أنَّ مع اسمها وخبرها مسدَّ مفعولَيْ عَلِمَ.

وقَوْلُهُ: «غَفَرتُ له»:

جـواب الشـرط المتقـدِّم. والمغفـرة مـن الله فَضْـل ومِنَّـة علـىٰ عبـاده المذنبين التائبين، حيث اجترؤوا عليه بالعصيان وارتكاب الذنوب، فوفَّقهم إلىٰ التوبة، وكافأهم عليها بالمغفرة وهي ستر الذنب ومحوه ورفع عقوبته وتبديله حسنة.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَلاَ أُبَالي»:

أي: لا أكترث، ولا أَهتمُّ، ولا أكره، وذلك لهوان المغفرة علىٰ الله وقُدرته عليها.

والبالُ ذ معانٍ عِدَّة منها: القلب، والخاطر، والنفس، فيقال: ما يخطر فلان ببالي أي ما ينشغل به قلبـي، ولا أُحدِّث به نفسي. وبالىٰ بالأمر: اكترث له واهتمَّ به. وما ألقىٰ له بالاً: أي لم ينصرف إليه ولم يجعل قلبه نحوه.

وجاء في الحديث: «إنَّ الله خلق آدم، ثمَّ أخذ الخلق من ظهره فقال: هؤلاء في الجنَّة ولا أُبالي، وهؤلاء في النار ولا أُبالي»[2]، أي: لا أكره.

وفي هذه الجملة من الحديث إشارة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ قادر علىٰ أن

---

(١) رواه أبو داود، والترمذيُّ، والحاكم.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ عن عبد الرحمن بن قتادة السلميّ.

يغفر الذنوب مهما بلغت، ولو كانت مثلَ زبد البحار وقَطْر السماء وعدِّ ذرات الرمال.

والمغفرة من بعض عطاءِ المولىٰ سبحانه لعباده الذي لو أعطىٰ الخلق أجمعين ما سألوه ما نقص من خزائنه شيء إلاَّ قدر ما ينقص المِخْيَط إذا أُدخل البحر، فأنّىٰ يَكترِث بعد هذا لشيء من فيوضات فضله علىٰ عباده.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾[1]، وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾[2]، وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[3].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «مَا لَمْ يُشْرِكْ بِـي شَيْئاً»:

لأنَّ الشِّرك من أقبح صُور العدوان علىٰ الله سبحانه حيث يُسوَّىٰ بينه وبين المعبودين من جماد وحيوان وإنسان، وفي هذا حطٌّ من قدر الخالق جلَّ وعزَّ وامتهانٌ لمكانته واتهامٌ له بالنقص والعجز والافتقار إلىٰ غيره، فكان من أقبح مظاهر الكفر، ومن أبشع صور الظلم، وكبيرةَ الكبائر التي لا يغفر الله لمرتكبها، ولا يدخله في رحمته ما لم يتب منه قبل أن تبلغ روحه الحلقوم.

فجاء في التنزيل الحكيم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾[4]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾[5].

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٧.
(٢) سورة الحجر: الآية ٢١.
(٣) سورة النَّحل: الآية ٩٦.
(٤) سورة النِّساء: الآية ٤٨.
(٥) سورة المائدة: الآية ٧٢.

وفي هذا الحديث توجيهٌ للعبد إلىٰ أن يكون صحيح العقيدة في الله راسخَ الإيمان بقدرته علىٰ كلِّ شيء، وبعثٌ للأمل في قلبه بمغفرة الله لذنوبه ولو كانت أمثال الجبال.

يقيني بعَفْوِكَ يا إلٰهي اتّخذتُه ... سراجَ حياتي في خِضَمٍّ ذُنوبي

علمتُك غفّاراً فجئتُك تائباً ... فأنت ــ إلٰه العالمينَ ــ طبيبي

❑ ❑ ❑

الحديثُ الثلاثون

الصَّبر علىٰ الابتلاء وثوابه

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعالىٰ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي المُؤْمِنَ فَلَمْ يَشْكُني إِلَىٰ عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ إِسَارِيْ، ثُمَّ أَبدلتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ، وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ العَمَلَ»[1].

[رواه الحاكِمُ بسندٍ صحيـح، والبَيْهَقِيُّ في شُعَب الإيـمـان]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي المُؤْمِنَ»:

أي: اختبـرتُـه وامتحنتُـه [والبـلاء والابتـلاء همـا بمعنًـى واحـد وهـو الاختبار، ويكون بالخير والشرِّ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2]، ومن الشرِّ الأمراض والآفات والمصائب، وهذا هو المراد

(١) صحيح الإسناد.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

بقوله تعالىٰ في الحديث: «إذا ابتليتُ عبدي المؤمن»، أي: أنزلت فيه المصائب وأصبته بالأمراض امتحاناً لقُوَّة إيمانه بـي واختباراً لصدق عبوديته واستسلامه لي].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «فَلَمْ يَشْكُنِي»:

أي: لم يُخبِر بما عنده من الألم، [قال ابن برّي: الاشتكاءُ إظهارُ ما بك من مكروه أو مرض ونحوه. اهـ.].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «إِلىٰ عُوَّادِهِ»:

أي: زُوَّاره في مرضه، وكلُّ من أتاك مرَّة بعد أُخرىٰ فهو عائد، لكنَّه اشتُهِر في عيادة المريض [حتىٰ صار كأنه مختصٌّ به. والفعل منه عادَ العليل يعودُه، ومصدرُه عَوْداً وعِيادةً وعِياداً، وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم مرضتُ فلم تعُدْني. قال: يا ربِّ كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟»[1]، وفي الشعر قال أبو ذُؤَيْب:

ألا ليت شعري، هل تنظَّرَ خالدٌ عِيادي علىٰ الهجرانِ أم هو يائِسُ؟

ويُقال: هؤلاء عَوْدُ فلان وعُوَّاده، مثل: زَوْرُه وزُوّاره، وفي حديث فاطمة بنت قيس: «فإنَّها امرأة يكثُر عُوَّادها»، أي: زُوَّارها.

ومعنىٰ الحديث: لم يبثَّ عُوّاده شكواه، ولم يظهر لهم تضجُّره من مرضه، بل أظهر الرضا عن الله والتسليم لمولاه فيما ابتلاه به من الأدواء، ولم يتكلَّف هذا في ظاهره، ويترك باطنَه للتذمُّر والتسخُّط، وإنّما كـان في باطنه وظاهره راضياً محتسباً، بل وجد في المرض نعمةً لما فيه من مغفرة ذنوبه ورفع درجاته عند محبوبه، فأنّىٰ له الشكوىٰ إذا وجد البلوىٰ في قلبه

(١) رواه مُسْلِم.

أطيبَ من الحلوىٰ، لأنَّ فيها قُربة من سيِّده العظيم سبحانه الذي يتفرَّغ بالمرض لمناجاته ومجالسته حيث ينصرف به عن مشاغل الحياة وهموم العيش وملذَّات الدنيا، ويُقبِلُ علىٰ ربِّه خاليَ القَلْب مِن سواه، فيسمو بمعراج ذكره ودعائه مُبتهجاً بمقام الذاكرين الذين استبشروا بقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[1]، وقوله في الحديث القدسيّ: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه»[2].

وأمّا من بثَّ عُوّاده شكواه، وأظهر التذمُّر مما أصابه به مولاه، فقد أحبط عمله، ودلَّ علىٰ ضعف إيمانه وقلَّة حبِّه لربِّه تعالىٰ، واعتراضه عليه بلسان حالٍ يقول: لِمَ أمرضتَني وأقعدتني الفراش؟!].

ففي الحديث أنَّ الشَّكْوىٰ تُحبِط الثواب، ومحلُّه إذا كان علىٰ وجه الضجر والسَّخط.

[وكان السَّلَف يحذرون من الأنين ويخافون أن يكون شكوىٰ عند ذلك يفقدون ثواب الصَّبْر علىٰ البلاء، وأجرَ الرِّضا بالقضاء، فذكروا أنَّ أُخت بشرٍ الحافيِّ دخلت علىٰ الإمام أحمد بن حنبل فقالت له: يا أبا عبد الله، أنين المريض هل هو شكوىٰ؟ فقال لها: إنِّي أرجو أن لا يكون شكوىٰ، ولكن هو اشتكاءٌ إلىٰ الله تعالىٰ، أي: نحو قوله تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[3]، وقوله في المجادلة: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[4]].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) رواه البخاريّ ومُسْلِم.

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٦.

(٤) سورة المجادلة: الآية ١.

قَوْلُهُ: «أَطْلَقْتُهُ مِنْ إِسَارِي»:

أي: [سَرَّحْتُه وخلَّيْتُه] من ذلك المرض. [والإسار: القيدُ، وشُبِّه المرض به، لأنَّه يمنع المريض من النَّشاط والحركة، ويُوهِنُه، فلا يقوم بالعمل كما يفعل القيد بالأسير إذْ يُثقِل حركته، ويُضعفها عندما يُشَدُّ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ»:

الأصل في الإِبْدال جَعْلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ آخر، ومعناه في الحديث: جعلتُ شفاءه من مرضه تطهيراً لجسمه ونفسه من الأذىٰ الحسيِّ والمعنويِّ، وكأنَّه خُلِق من جديد، فأُبدِل لحماً مكان لحمه ودماً مكان دمه لم يتلوَّثا بعصيان، ولم يصابا بأدواء، ويشير إلىٰ هذا المعنىٰ قوله ﷺ في صحيح مسلم: «لا تسُبِّي الحُمَّىٰ، فإنَّها تُذهِب خطايا ابن آدمَ، كما يُذهِبُ الكيرُ خبثَ الحديدِ».

وحمله بعضهم علىٰ ظاهر معناه، فقال: هو إبدال حِسِّيٌّ، والله قادر علىٰ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ العَمَلَ»:

الاستئناف هو الابتداء ومثله الائْتِناف تقول: استأنف الشيءَ وأتنفه: أخذ أوَّله وابتدأه، وقيل: استقبله. ومعناه في الحديث: يبدأ العمل بجسم طاهر قد مُحِيت عنه خطاياه حيث غُفِر له ما مضىٰ، ويؤكِّد هذا المعنىٰ ما رواه الطبرانيُّ في الكبير عن ابن عمر من حديث طويل: «يأتي مَلَكٌ حتىٰ يضع يديه بين كتفيك، فيقول: اعمل فيما تستقبِل، فقد غُفِر لك ما مضىٰ».

ففي الحديث حضٌّ للمؤمن علىٰ أن يكون صابراً محتسباً راضياً عن الله في أحواله جميعها ملازماً لحمد المولىٰ سبحانه في كلِّ حال؛ في حال صحَّته

وحال سقمه حتىٰ يفوز بمغفرة الذنوب والترقِّي إلىٰ أعلىٰ الدرجات عند علاَّم الغيوب.

وجاء هذا الحديث برواية الإمام مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار عن أبـي هريرة، ونصُّها: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبدُ بعثَ اللّـٰهُ تعالىٰ إليه ملكين فقال: انظُرا ماذا يقولُ لعُوَّاده؟ فإن هو إذا دخلوا عليه حمد الله تعالىٰ رفعوا ذلك إلىٰ الله، وهو أَعْلَمُ، فيقولُ: لعبدي إنْ أنا توفَّيتُه أَنْ أُدخله الجنَّة، وإنْ أنا شفيتُه أن أُبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأَنْ أُكفِّر عنه سيِّئاته»].



الحديثُ الحادي والثلاثون

سَعَة رحمة الله وعظيم مغفرته

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّـهُ تَعَالىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلىٰ مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَنَّكَ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، لأَتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغْفِرَةً»[1].

[رواه التِّرْمِذِيُّ بسندٍ صحيحٍ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يا ابن آدم»]:

هذا نداء من الأعلىٰ سبحانه إلىٰ الأدنىٰ وهوكلُّ إنسانٍ من ذُرِيَّة آدم عليه السلام.

خُصَّ ابنُ آدم بالنِّداء لا علىٰ سبيل التحديد والتعيين، ولكن علىٰ سبيل

(١) حسن الإسناد. انظر: «الجامع الصغير» للإمام السيوطيّ ٢/ ٦٨١.

التغليب، فهو نداء لذريّة آدم عليه السلام ذكورها وإناثها، نحو نداءات القرآن الكريم للمؤمنين والمؤمنات بلفظ المؤمنين كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ . . . ﴾[1]، فالصِّيام فُرِض علىٰ الذكور والإناث من المكلَّفين من المسلمين، وخُصَّ الذُّكور بالنداء فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ علىٰ عادة العرب في تغليبها لفظ الذكر علىٰ الأنثىٰ وقصدهما به معاً.

وآدم هو أبو البشر وإليه يُنسَبُون، وهو أوَّل الأنبياء لما رُوي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الأنبياء كان أوّل؟ قال: «آدم»، قلتُ: يا رسول الله، ونبيٌّ كان؟ قال: «نعم، نبيٌّ مكلَّم»، قلتُ: يا رسول الله، كم المرسَلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعةَ عشر جمّاً غفيراً».

واختُلِف في كونه رسولاً، فذهب بعضُهم إلىٰ أنَّه رسولٌ، وقد أُرْسِل إلىٰ أولاده.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي»:

الدُّعاء: واحد الأدعية وأصل همزته واو، ولكن لما سبقتها ألف قُلبت همزة، ومعناه السؤال والاستغاثة، ويكون من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، وقالوا أيضاً: الدعاءُ هو الرغبة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ. وقالوا: الدعاءُ معناه العبادة لحديث: «الدعاءُ هو العبادة»[2]، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾[3]، ولقوله تعالىٰ: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣.
(٢) رواه أبو داود، والترمذيُّ، وقال: حديث حسن صحيح.
(٣) سورة غافر: الآية ٦٠.

﴿إِلَٰهًا﴾[1]، قال سعيد بن المسيِّب: أي لن نعبد إلـٰهاً دونه، ولقوله تعالىٰ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾[2]، أي: أتعبدون ربّاً سوىٰ الله، ولقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[3]، أي: لا تعبد. ولقوله عزَّ من قائل: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾[4]؛ قال مجاهد: يصلّون الصلوات الخمس.

ويأتي الدُّعاء بمعنىٰ الإِيمان نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[5]، أي: إيمانكم.

وقال أبو إسحاق في قوله تعالىٰ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[6]: معنىٰ الدعاء لله علىٰ ثلاثة أوجه:

فضرب منها توحيده والثناء عليه: كقولك: يا الله لا إلـٰه إلاَّ أنتَ، وكقولك: ربّنا لك الحمد، إذا قلته فقد دعوته بقولك ربّنا ثمَّ أتيت بالثناء والتوحيد.

والضرب الثاني: مسألةُ الله العفوَ والرحمة وما يُقرِّب منه، كقولك: اللّـٰهم اغفر لنا.

والضَّرْب الثالث: مسألةُ الحظِّ من الدنيا كقولك: اللّـٰهم ارزقني مالاً وولداً. وإنَّما سُمِّي هذا جميعه دعاءً لأن الإِنسان يُصَدِّر في هذه الأشياء بقوله: يا الله، يا ربّ، يا رحمـٰن.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٤.
(٢) سورة الصافّات: الآية ١٢٥.
(٣) سورة القصص: الآية ٨٨.
(٤) سورة الكهف: الآية ٢٨.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٧٧.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

وفي حديث عرفة: «أكثر دُعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد وهو علىٰ كلِّ شيء قدير»[1].

وإنَّما سُمِّي التهليل والتحميد والتمجيد دعاءً، لأنَّه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه، كالحديث الآخر: «إذا شَغَلَ عَبْدي ثناؤه عليَّ عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أُعطي السائلين»[2].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾[3]، أخبر جلَّ جلاله أنَّهم يبتدئون دُعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه، ويختمونه بشُكره والثناء عليه، فجعل تنزيهه دعاءً وتحميده دعاءً. وقوله: «دعواهم»، أي: دعاؤهم.

والدُّعاء هو أعلىٰ درجات العبادة لقوله ﷺ: «الدُّعاء مُخُّ العبادة»[4]، ولقوله أيضاً: «أفضل العبادة الدعاءُ»[5]. والصلاة التي هي أرقىٰ العبادات وأشدُّها التصاقاً بالمؤمن معناها الدُّعاء.

وأمر الله تعالىٰ عباده بالدعاء ووعدهم عليه بالإجابة فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾[6]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾[7].

---

(١) رواه الترمذيُّ، والبيهقيُّ، وابن ماجه.

(٢) رواه البيهقيُّ والديلميُّ بلفظ: «من شغله ذكري عن مسألتي».

(٣) سورة يونُس: الآية ١٠.

(٤) رواه الترمذيُّ.

(٥) رواه الحاكم، وابن عدي، وابن سعد.

(٦) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

وجاءت الأحاديث النبويَّة الشريفة حاثَّة علىٰ الدعاء مرغِّبة فيه مبيِّنة أوقات الإجابة وصِيغ سؤال المولىٰ سبحانه، وداعية إلىٰ ملازمته واللجوء إليه في جميع الأحوال.

فجاء في الحثِّ علىٰ الدعاء:

عن أنس رضي الله عنه:

قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدُكم ربَّه حاجته حتىٰ يسأله شِسعْ نعله إذا انقطع»(١).

وجاء في الترغيب في الدعاء:

عن أبـي هريرة رضي الله عنه:

قال رسول الله ﷺ: «ما مِن رجلٍ يدعو بدعاء إلاَّ استُجيب له، فإما أن يعجَّل له في الدنيا، وإمّا أن يُدَّخر في الآخرة، وإمّا أن يُكفَّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل فيقول: دعوتُ ربِّـي فما استجاب لي»(٢).

وجاء في ملازمة الدعاء والإكثار منه:

عن أنس رضي الله عنه:

قال رسول الله ﷺ: «لا تعجِزوا عن الدُّعاء، فإنَّه لن يهلك مع الدُّعاء أحد»(٣).

---

(١) رواه الترمذيُّ وابن حِبّان.

(٢) رواه الترمذيُّ.

(٣) رواه الحاكم.

وروىٰ أبو الشيخ عن أنس رضي الله عنه:

عن النبيّ ﷺ: «يا أنسُ أكثر من الدعاء، فإنَّ الدعاء يردُّ القضاء المبرَم».

وجاء في بيان كيفية الدعاء الحسيّة والمعنويّة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفُّكم، ولا تسألوه بظهورها، وامسحوا بها وجوهكم»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

«أُدعوا الله وأنتم موقنون بالإِجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

«إذا دعا أحدكم فليعزِمْ المسألة، ولا يقلْ: اللّٰهم إن شئت فأعطني، فإنّه لا مستكره لَه»[٣].

وجاء في الدعاء في أوقات الإِجابة:

قيل: يا رسول الله، أيُّ الدعاءُ أسْمَعُ؟ قال: جَوْفَ الليلِ، ودُبُرَ الصلوات المكتوبات»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه ابن ماجه، والطبرانيُّ، والحاكم.

(٢) رواه الترمذيُّ والحاكم.

(٣) رواه أحمد والنَّسائيُّ.

(٤) مصابيح السُّنَّة.

«أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، فأكثروا الدُّعاء»[1].

وعن عليّ رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

«إذا صلَّيْتُم الصبح فافزعوا إلىٰ الدُّعاء، وباكروا في طلب الحوائج، اللّٰهم بارِك لأُمَّتي في بُكورِها»[2].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

«الدعاء لا يُردّ بين الأذان والإقامة»[3]].

وجاء في بيان فضيلة الدُّعاء بحسب الأشخاص:

عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتىٰ يُفطِر، ودعوة المظلوم يرفعُها الله فوق الغَمام، وتُفتَح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ تبارك وتعالىٰ: وعِزَّتي لأنصرنَّكَ ولو بعد حين»[4].

وجاء في بيان فَضِيلة الدعاء تبعاً لفضيلة الأماكن والمواطن:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الملتزم موضع يُستجاب فيه الدعاء، وما دعا عبدٌ اللّٰهَ تعالىٰ فيه إلاَّ استجابها»، أو نحو ذلك.

قال ابن عبّاس: «فوالله ما دعوت الله عزَّ وجلَّ قطُّ إلاَّ أجابني».

---

(١) رواه مُسلِم وأبو داود والنَّسائيُّ.

(٢) رواه مُسلِم وأبو داود والنَّسائيُّ.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذيّ والنَّسائيُّ وابن حِبّان.

(٤) رواه أحمد والترمذيّ وابن ماجه.

ثمَّ ذكر نحو قول ابن عبَّاس جميع الرواة الذين رووا الحديث، وهم يزيدون علىٰ العشر، وآخرهم المحبّ الطبري، فقال: «قلت: وأنا دعوت الله عزَّ وجلَّ فيه مِراراً فاستجاب لي»(١).

وعن أبـي هُريرة رضي الله عنه: أنَّ النبـيَّ ﷺ قال:

«وُكِّلَ به سبعونَ ملكاً ــ يعني الركن اليمانيّ ــ فمن قال: اللّٰهم إنّي أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، قالوا: آمين»(٢).

وجاء في بيان فضيلة صيغ من الدعاء:

عن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«دعوةُ ذي النون الذي دعا بها، وهو في بطن الحوت: لا إلٰه إلاَّ أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين، لم يدعُ بها رجلٌ مسلم في شيءٍ قطُّ إلاَّ استجابَ الله له»(٣).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

«يا معاذُ، والله إنِّي لأُحِبُّكَ، أُوصيك يا معاذُ، لا تدعنَّ في دُبر كلِّ صلاةٍ أن تقول: اللّٰهم أعنِّي علىٰ ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحسنِ عبادتِك»(٤).

---

(١) هذا حديث حسن غريب، من حديث عمرو بن دينار المكِّي عن ابن عباس. وعقَّب الزبيديُّ علىٰ ذلك بقوله: «وقد وقع لنا مسلسَلاً، رويناه عن شيخنا السيد عمر بن أحمد، وهكذا إلىٰ ابن عباس، وهكذا قال كلّ راوٍ إلىٰ أن وصل إلينا. انظر: إتحاف السادة ٣/ ٣٥٤.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه أحمد، والترمذيُّ، والنّسائي، والحاكم.

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، وابن حِبَّان، والحاكم.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَرَجَوْتَنِي»:

الرجاء من الأمل وهو نقيض اليأس، ويعني طلب أمر محبوب يُرجىٰ حصولُه، ومراده في الحديث نحو قوله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[1]، أي: ادعوا الله تعالىٰ وأنتم تُؤمِّلون أن يجيبكم الله تعالىٰ، وتُوقنون بذلك لأنَّه سبحانه وحدَه القادر علىٰ إجابة الدعاء ومَن سواه مِنْ خَلْقه لا يملك مع ملكه شيئاً، ولا يقدر مع قدرته علىٰ شيء، إذ قال جلَّ جلاله: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[2].

فالمؤمن يدعو الله تعالىٰ وهو مشرِق الأمل بالإجابة.

وقيل: الرَّجاء بمعنىٰ الخوف. قلت: الأوّل أرجح لسياق الحديث. وقيَّد كثير من أهل اللُّغة المعنىٰ الثاني بالجَحْد، فقال الفرَّاء: الرجاء في معنىٰ الخوف لا يكون إلاَّ مع الجَحْد، تقول: ما رجوتُكَ، أي: ما خفتُكَ، ولا تقول: رجوتُك في معنىٰ خفتك. ويؤيّده في التنزيل العزيز قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[3]، أي: لا تخافون، وقوله أيضاً: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾[4]، أي: لا يخشون لقاءنا.

وفي الشعر قول أبـي ذؤيب:

إذا لَسَعَتْه النَّحلُ لم يَرجُ لَسْعَها   وخالفَها في بيتِ نُوبٍ عَواسِلِ

أي: لم يخَف، ولم يُبالِ.

---

(١) رواه الترمذيّ عن أبـي هريرة.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٥.

(٣) سورة نوح: الآية ١٣.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٢١.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «غَفَرتُ لَكَ عَلىٰ ما كَانَ مِنْكَ»:

أي: مهما بلغت إساءتُك، ومهما ارتكبتَ من الذنوب، ومهما فعلتَ من الآثام والخطايا حتىٰ تصوَّرت أنَّ من كان مثلك لا يُقبَل ولا يُغْفَر له، فأنَّك إن دعوت الله بِصِدْقٍ ورجوته بإخلاصٍ قَبِلك علىٰ ما كان منكَ، وغَفَر لكَ ذنوبك ومحاها عنكَ.

قَوْلُهُ: «وَلا أُبَالِي»:

تأكيد لفضل الله تعالىٰ وكرمه علىٰ العبد بمغفرة ذنبه وقَبُول توبته، وإشارةٌ إلىٰ هوان المغفرة علىٰ الله وقدرته عليها مهما عظُمت ذنوب العباد وكثُرت خطاياهم، فلا يكترث سبحانه وتعالىٰ للمغفرة أن يجود بها علىٰ عباده التائبين، لأنَّه تعالىٰ لا تضرُّه معصيتُهم ولا تنفعُه طاعتهم، فهو الغنيُّ عن العالمين].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ»:

[العَنان] بفتح العين، هو السحّاب، وقيل: ما عنَّ لك منها، أي: ظَهَر إذا رفعتَ رأسكَ [، والسماء في اللُّغة يقال لكلٍّ ما ارتفع وعلا قد سما يسمو. وكلُّ سقف فهو سماء، وكلُّ ما علاك وأظلَّك يكون سماءً، والمراد بالسماء في هذا الحديث السقف المحفوظ الذي يعلو الأرض كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾(١).

والمعنىٰ: لو وصلت ذنوبُك بكثرتها وعظمها إلىٰ السماء العالية، وأصبحتْ كالجبال الشاهقة التي تناطَح السَّحاب، ثمَّ سألتَ الله تعالىٰ مَغفِرتها لغفرها لك، وكان ربُّك علىٰ ذلك قديراً، لأنَّه القائل عن نفسه

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٢.

المبشِّر لعباده: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾(1)].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَنَّكَ أَتَيْتَنِي بِقُرابِ الأَرْضِ خَطَايَا»:

[القُرَاب] بضمِّ القاف وكسرها لغتان، والضَّمُّ أشهر، ومعناه ما يُقارب مَلأَهَا [، وهو مصدر قاربَ يُقارِب، وفي اللِّسان: القِراب أيْضاً إذا قارب أن يمتلئ الدَّلْوُ، وقال العنبر بن تميم، وكان مجاوراً في بَهْراءَ:

قــد رابنــي مِــن دَلْــوِي اضطــرابُهــا
والنــأيُ مــن بَهْــراء واغتــرابُهــا
إلاّ تجِــي مَــلأىٰ يَجِــي قِــرابُهــا

والخطايـا جمـع كثرة مفرده خطيئة، ويجمع جمعَ سلامـةٍ في القلَّة، فنقول: خطيئات. وجاء الجمعان في التنزيل العزيز: أما الأوَّل فنحو قوله تعالىٰ: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾(2)، وأما الثاني فنحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ ﴾(3).

وفرَّقوا بين الخطيئة والسيِّئة، فقالوا: الخطيئة تغلب فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه، ويكون القصد إليه بالعَرَض، والسيِّئة: قد تُقال فيما يُقصد بالذات.

وفرَّقوا أيضاً بين الخطيئة والإثم، فقالوا: الخطيئة قد تكون من غير تعمُّد، والإثم لا يكون إلاَّ بالتعمُّد.

---

(1) سورة الزُّمَر: الآية ٥٣.
(2) سورة البقرة: الآية ٥٨.
(3) سورة الأعراف: الآية ١٦١.

والخطيئة تقع علىٰ الصغيرة نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[1].

وتقع علىٰ الكبيرة، نحو قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[2].

والمعنىٰ في الحديث: يا ابن آدم لو أتيتني بخطايا تقارب مِلْء الأرض كثرةً وعِظماً، ثُمَّ مِتَّ علىٰ الإيمان الصحيح بـي مُقِرّاً بربوبِيَّتي معتقِداً وحدانيَّتي خاضعاً لجلالي تائباً من ذنبك إليّ لأتيتك بمثل خطاياك مغفرةً.

ومن مظاهر مغفرة الله تعالىٰ للعبد التائب أن يجعل مكان سيِّئاته وخطاياه حسنات كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[3]، وهذا هو شأن الربِّ الكريم الرحيم الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيِّئات، ويُضعِف الحسنات.

وهذا الحديث العظيم هو من أحاديث البشارات التي تُوقِد شُعلة الأمل في نفوس المذنبين الذين أثقلتهم الذنوب والأوزار، وكادت تلقي بهم في ظلمات اليأس والقنوط من عفو الله ورحمته.



(١) سورة الشعراء: الآية ٨٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨١.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

الجزء الثالث



الحديثُ الثاني والثلاثون

مِن ثمار طاعة الله

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ رَبُّكُمْ: لَوْ أَنَّ عِبادِيْ أَطَاعُوْنِي لأَسْقَيْتُهُمُ المَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَلأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بالنَّهارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ»[1].

[رواه أحمد بسندٍ صحيحٍ، والحاكم]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي»]:

الطاعة هي الانقياد الاختياريّ، وأكثر ما تُقال في الائتمار فيما أُمِر والارتسام فيما رُسِم. ولا يُقال: أطعتُ أمر زيدٍ، بل يُقال: أطعتُ زيداً في أمره.

وطاعة الله عزَّ وجلَّ هي امتثال أوامره وترك نواهيه والوقوف عند حدوده. والتاء في كلمة «الطاعة» للدلالة علىٰ الكثرة أو لنقل الصفة إلىٰ الاسميّة.

---

(١) ضعيف الإسناد. انظر: «الجامع الصغير» للإمام جلال الدين السيوطيّ ٢/ ٦٨٢.

والفرق بين الطاعة والعبودية والعبادة والقُرْبة: هو: أنَّ العبوديَّة إظهار التذلُّل، والعبادة أبلغ منها لأنَّها غاية التذلُّل، وهي لا تجوز إلاَّ لله سبحانه ويمتنع تصوُّرها علىٰ الاستحقاق لغيره، وتعني تعظيم المولىٰ سبحانه غاية التعظيم، وهي أخصُّ من الطاعة والقُرْبة.

وأنَّ القُرْبة: أخصُّ من الطاعة لاعتبار معرفة المتقرَّب إليه فيها، وتكون بفعل المأمورات ولو نَدْباً، وكلِّ ما فيه تعظيم لله بما يُوافق شَرْعه.

وأمّا الطاعة فتعني موافقة الأمر وهي أعمُّ من العبادة، لأنَّها تُستَعْمل لموافقة أمر الله وأمر غيره نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[1].

والطاعة لغير اللّـٰهِ تجوز في غير المعصية، لأنَّ قاعدة الدِّين تقول: لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

والطاعة إذا أدَّت إلىٰ معصية راجحة وجب تركها.

والمراد في الحديث: لو أنَّ عبادي انقادوا لي؛ فامتثلوا ما أمرتهم به، واجتنبوا ما نهيتُهم عنه، واستقاموا علىٰ هَدْي ما شرعت لهم من الدِّين، ولم يخالفوه لا قولاً ولا فعلاً ولا معتقداً.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «لأَسْقَيْتُهُمُ المَطَر باللَّيْلِ»:

أي: أنزلت عليهم المطر ليلاً، فلا يتأذَّون بنزوله، لأنَّهم يكونون داخل بيوتهم وفي أماكن مبيتهم، وجعلتُه سُقيا رحمة، فلا يتضرَّرون به، ولا يُفسِد زروعهم، ومنازلهم وأشياءهم.

---

(١) سورة النِّساء: الآية ٥٩.

وعبَّر عن نزول المطر بالسَّقي تذكيراً بغالب منافعه، لأنَّه يُنتفَع به بالشرب وبغيره، إلاَّ أنَّ استعماله في الشرب من أكثر منافعه حيث يشرب منه الإنسان والحيوان والطير والنبات والحشرات وسائرُ ما يفتقر إليه من المخلوقات.

وقوله: «لأسقيتُهم» أبلغُ من «سقيتُهم»، لأنَّ الإسقاء أن تجعل له ما يُسقىٰ منه ويشرب كيف شاء تقول: أسقيتُه نهراً، أي: جعلت له نهراً يتناول فيه فيشرب متىٰ شاء وكيف شاء، ونحوه في التنزيل العزيز قال تعالىٰ: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾[1]، وقال: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾[2]، أي: جعلناه سقياً لكم.

وأمَّا السَّقي والسُّقْيا أن تعطيه ما يشرب، ونحوه في التنزيل قوله سبحانه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾[3].

ولا يختلف اثنان في أنَّ الماء من النِّعم العظيمة التي لا تصلح حياة المخلوقات بدونها، ويكون فساد عيشها وهلاكها بفقدها.

ولقد ذكَّر الله تعالىٰ بها في القرآن الكريم في مواطن عديدة، فقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾[4]، ودعا إلىٰ أسباب استدراره ونزوله غيثاً علىٰ العباد، فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ

---

(١) سورة المرسلات: الآية ٢٧.

(٢) سورة الحِجْر: الآية ٢٢.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٢١.

(٤) سورة ق: الآيات ٩ ــ ١١.

جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾[1].

وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾[2].

وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾...﴾[3]].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «ولأطلعتُ عليهم الشمس بالنَّهار»:

فتنتفي عنهم المشقَّة الخاصَّة بوجود المطر وعدم الشمس بالنهار، [لأنَّ الغالب في شأن الخلق أن يخرجوا من بيوتهم ومساكنهم في النهار ليطلبوا معاشهم، ويسعَوا خلف أرزاقهم، فيصعب عليهم تحقيق ذلك، ويجدون مشقَّة إذا ما غابت شمس نهارهم وامتلأت ساعاته بالغيوم والأمطار التي تُعيق الأعمال وتقطع السُّبُلَ والأسفار.

فمِن نِعَمِ الله سبحانه علىٰ خَلْقه أن جعل النهار مبصراً، ليستطيعوا فيه طلب المعاش، والليلَ مظلماً ليأووا فيه إلىٰ مساكنهم، ويُريحوا أجسامهم من عناء العمل وتعب الحركة والسعي في أرجاء النهار.

ولقد جاء في التنزيل العزيز الإشارة إلىٰ هذه النعمة العظيمة والتذكير بها، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾[4]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾﴾[5]، وقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم

---

(١) سورة نوح: الآيات ١٠ ــ ١٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(٣) سورة الجنّ: الآية ١٦.
(٤) سورة يونس: الآية ٦٧.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٤٧.

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ»:

هذا من رحمته سبحانه لعباده ولُطفه بهم، لأنّ صوت الرَّعْد يُفزع النفوس ويُرعب القلوب لقوّته وشدَّة وَقْعه، وخاصَّةً إذا كان المخلوق نائماً في غمرة السكون وأحضان الهدوء، فإذا ما سمع صوت الرعد الهادر فزع من نومه، واضطرب في فراشه.

ولقد عبّروا عن الرَّجفان الذي يصيب بدن الإنسان حال الخوف أو عند شدَّة البرد بالرِّعْدة والارتعاد أخذاً من الرَّعد لما يُثير من الخوف في نفس سامعه، ويُحدِث من الفزع في قلبه.

والرَّعْد هو الصوت الذي يُسمع من السَّحاب، ويُؤْذِن بنزول المطر.

وجاء في التنزيل العزيز: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ ﴾[3].

قال الزجّاج: جاء في التَّفسير أنَّ الرَّعد مَلَك يزجُر السَّحاب، قال: وجائز أن يكون صوت الرَّعد تسبيحَه، لأنَّ صوت الرَّعد من عظيم الأشياء.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الرَّعد مَلَك يسوق السَّحاب كما يسوق الحادي الإبل بحُدائه. وقالوا: ذكر الملائكة في الآية بعد ذكر الرَّعد من باب ذِكْر الجنس بعد نوعه، أو ذِكْر العام بعد الخاص.

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٣.

(٢) سورة النبأ: الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة الرَّعد: الآية ١٣.

وأمّا عن التعليل العلميّ للرعد فقد قال علماء الكون: وعقب رؤية البرق يُسمَع عادةً صوتٌ قويٌّ أو عِدَّة أصوات قويَّة تظلُّ تُقَعقِع لفترةٍ تقرب من دقيقة. هذه الأصوات هي ما نسمِّيها بالرَّعد.

وتنشأ كالآتي: الشرارات الكهربائيَّة المكوِّنة للبرق ترفع درجة حرارة الهواء الذي تمرُّ فيه فجأة فيتمدَّد الهواء تمدُّداً فُجائياً ممّا يُسبِّب حدوث تفريغ جُزئيٍّ في المكان ــ أي: تخلخُلاً في الهواء ــ ولذا سرعان ما يندفع الهواء من كلِّ صوب ليملأ موضع التفريغ، والصوت الذي يصحب اندفاع الهواء هو الذي نسمعه ونسمِّيه رَعْداً[1].

أقول: إنَّ هذا التعليل العلميّ لا يتعارض مع ما جاء في التفاسير من أنَّ ملائكة مكلَّفين بسَوْق السَّحاب ودَفْعِه إلىٰ حيث أمر الله تعالىٰ من سَوْق الأرزاق إلىٰ خلقه، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2].

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «بينما رجلٌ يَمْشِي بفلاةٍ من الأرض، فسمِعَ صوتاً في سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فلانٍ، فتنحّىٰ ذلك السَّحابُ، فأفرَغ ماءَه في حَرَّةٍ، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه، فتتبَّعَ الماءَ، فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقته يُحوِّل الماء بِمِسْحَاتِهِ، فقال له: يا عبد الله ما اسمُكَ؟ قال: فلانٌ، للاسم الذي سمع في السَّحابةِ، فقال له: يا عبد اللّـٰهِ، لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إنِّي سمعت صوتاً في السّحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ

---

(١) انظر: «تفسير الآيات القرآنية في القرآن» ٥٦، تأليف عبد المنعم السيِّد.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٧.

حديقةَ فلانٍ لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذْ قلتَ هذا، فإنِّي أنظُرُ إلىٰ ما يخرُج منها، فأتصدَّق بثُلُثِهِ، وآكل أنا وعيالي ثُلُثاً، وأردُّ فيها ثلثَه»[1].

ففي هذه الآية والحديث دليل علىٰ أولئك الملائكة المكلَّفين بسَوْقِ السحاب.

وكونُ صوت الرَّعْد الناشئ عن حركة الهواء أثناء ملء موضع التفريغ تسبيحاً صريحٌ في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾[2]، وجائز أن يكون معه صوت تسبيح المَلَك المكلَّف بسَوْق السَّحاب، إذْ كلُّ شيءٍ في هذا الوجود يسبِّح بحمد الله لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[3].

وذَكَر بعضُهم أنَّ في تسبيح الرَّعدِ كما جاء في القرآن الكريم إلفاتاً للإنسان ودعوةً له إلىٰ أن يسبِّح ربَّه ويحمده شاكراً له علىٰ نعمه، لأنَّ من شأن الرعد أَنْ يتبعه المطر دائماً، فإذا سُمِع هَزيمُه بشَّر بتلك النعمة العظيمة].



(١) رواه مُسْلِم.

(٢) سورة الرَّعد: الآية ١٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الحديثُ الثالث والثلاثون

ثمرة اتِّقاء الشرك

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«قَالَ رَبُّكُمْ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَىٰ فَلاَ يُجْعَلْ مَعِيَ إِلـٰهٌ، فَمَنْ اتَّقَىٰ أَنْ يَجْعَلَ مَعِيَ إِلـٰهاً، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»(١).

[رواه أحمدُ، والتِّرمذيُّ، والنَّسائِيُّ، وابنُ ماجَه، والحاكِم]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَىٰ»:

هو تفسير لقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾(٢).

كما قال البيضاويُّ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: حقيقٌ بأن يُتَّقَىٰ عِقَابُه، ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾: حقيقٌ بأن يَغْفِر لعباده سيَّما المتّقين منهم، [لأنَّه لا يُتصوَّر ذلك من غيره، لكون ذلك الغير عاجزاً عن أن يمنح أو يمنع، مفتقراً إلىٰ الغنيِّ الحميد سبحانه الذي قال: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾(٣).

---

(١) ضعيف الإسناد. انظر: «الجامع الصغير» للإمام جلال الدِّين السيوطيّ ٢/ ٦٨٢.

(٢) سورة المدثِّر: الآية ٥٦.

(٣) سورة فاطر: الآية ١٥.

فمن أراد أن يتّقي عقابَ الله تعالىٰ، وينجو من عذابه، ويفوز بعفوه ومغفرته عليه ألاَّ يُشرِكَ به شيئاً، وهذا ما صرَّح به المولىٰ سبحانه في سياق الحديث، فقال:

«فَلَا يُجْعَلْ مَعِيَ إِلـٰهٌ»:

بناء فعل «يُجعَل» للمجهول وعدم التصريح بالفاعل إشارة إلىٰ أنّ قضيَّة الإلـٰه الآخر مع الله سبحانه مرفوضة عقلاً، ويستحيل علىٰ العقول السليمة تصوُّرها، ولا يقبلها حقٌّ ولا منطق ولا واقع، ويجب أن تُمحىٰ لوثةُ الشِّرك من نفوس العباد وعقولهم، فلا يبقىٰ في قلوب الخلق وعقولهم ونفوسهم سوىٰ توحيد الله القائل عن نفسه: ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1]، لأنَّ كلَّ ذرّة في هذا الكون تدلُّ علىٰ وحدانيّة الله ربِّ العالمين، وتشهد بأنَّه لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل، فلا يستقيم مع الحقِّ والعدل والعقل أن يتوجَّه العباد إلىٰ غيره أو يُشركوا معه أحداً سواه. ورحم الله الشاعر حيث قال:

أيا عجباً كيف يُعصىٰ الإلـٰه ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كلِّ شيء له آيةٌ ... تدلُّ علىٰ أنّه الواحد

فالقضيَّة الإيمانيَّة الكبرىٰ تتركَّز في عدم وجود شريكٍ لله تعالىٰ بصرف النظر عمَّن اعتقد وجوده، لذلك بُني الفعل للمجهول.

والشِّرك عُدوان سافر علىٰ الله، وهو من أعظم الذنوب وأبشع مظاهر الظلم، وهذا ما أوضحه الله تعالىٰ في كتابه العزيز، فقال علىٰ لسان لقمان وهو يعظ ولده: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[2]، وقال

(١) سورة الحجّ: الآية ٣٤.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

في التنديد بالشِّرك والوعيد علىٰ ارتكابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1].

وكلُّ توجُّهٍ إلىٰ غير الله ولو مع الإيمان بوحدانيَّته سبحانه هو ممارسةٌ لمظهر من مظاهر الشِّرك، لأنَّ شرك الإنسان في الدِّين ضربان:

أحدهما: الشِّرْك العظيم ويُسمَّىٰ الشِّرْكَ الجَليَّ، وهو اعتقاد وجود شريك لله في ذاته وصفاته وأفعاله كشِرْك النصارىٰ وأهل الجاهليَّة، وهذا ما توعَّد الله تعالىٰ أهله بقوله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[2].

والثاني: الشِّرْك الصغير، ويسمّىٰ الشِّرك الخفيَّ، وهو مراعاة غير الله معه ويُسمّىٰ الرِّياء والنِّفاق، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[3]. وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «الشِّرك في هذه الأُمَّة أَخفىٰ من دبيب النَّمل علىٰ الصفا»[4].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «إِلـٰهٌ»:

أي: معبود، فقالوا: أَلَه فلان يأْلَه: عبَد. وقالوا: «الله» أصله إلـٰه فحُذفت الهمزة وأُدخل عليه الألف واللام فخُصَّ بالباري سبحانه.

وقيل: «إلـٰه» من أَلِهَ، أي: تحيَّر، وذلك أنَّ العبد إذا تفكَّر في صفاته تحيَّر فيها، ولهذا رُوِي: «تفكَّروا في آلاء الله ولا تفكّروا في الله»[5].

---

(١) سورة النِّساء: الآيتان ٤٨، ١١٦.

(٢) سورة النِّساء: الآية ١١٦.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٦.

(٤) رواه ابن النجار عن عائشة، (رضي الله عنها).

(٥) رواه أبو الشيخ، والطبراني في الأوسط، والبيهقيُّ.

وقيل: أصله «وِلاه»، فأُبدِلَ من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كلِّ مخلوقٍ والهاً نحوه، إمَّا بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإمّا بالتسخير والإرادة كبعض الناس، وعليه دلَّ قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

وقيل: أصله من لاهَ يلوه لِياهاً، أي: احتجب، يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[3]. وإلـٰه حقُّه أن لا يُجمع إذ لا معبود سواه. وجمَعْته العرب لاعتقادها تعدد المعبودات فقالوا: آلهة.

وقوله تعالىٰ في نصِّ الحديث: «إلـٰهٌ» بالتنكير إشارة إلىٰ كثرة المعبودات الزائفة وتنوُّعِها، وجَعْلِها شريكةً للمولىٰ سبحانه كالمال والمنصب والنفس والهوىٰ والجنس والشيطان والأوثان، فما أكثر المعبودات الباطلة التي عبدها الإنسان وتوجَّه إليها معتقداً لها صفات الإلـٰه الحقِّ، ولقد صدَّر الله تعالىٰ من هذه الآلهة المزعومة، ودعا إلىٰ نبذها لبطلانها وضعفها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[4].

وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾[5].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٣) سورة الحديد: الآية ٣.
(٤) سورة الحجّ: الآية ٧٣.
(٥) سورة النّحل: الآية ٧٣.

وقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾[1].

وقال في بيان مصير العابدين والمعبودين من أهل الباطل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «فَمَن اتَّقىٰ أَنْ يَجْعَلَ مَعِيَ إِلٰهاً»:

أي: وقىٰ نفسه من الشِّرْك الجليِّ والخفيِّ بيقين الإيمان به سبحانه وتجنُّب التوجُّه إلىٰ سواه.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «فَأَنا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»:

لأنَّه تعالىٰ هو المالك للمغفرة والقادر عليها، فلا تُتصوَّر من غيره فلو أساء عبد وارتكب ذنباً في دين الله لا تستطيع الدنيا بما فيها من القُوىٰ والبشر والخلق أن تغفر له وتسامحه ما لم يغفر له اللّٰهُ تعالىٰ، لأنّها ضعيفة وفقيرة وعاجزة.

وبناءً علىٰ هذا نجد أنَّ ما يمارسه القساوسة والرهبان ونُوّابهم في ملَّة النصارىٰ من غفران ذنوب المذنبين بعد الإقرار والاعتراف بها بين أيديهم ومنحهِم صكَّ الغفران وهو البراءة من النار ودخول الجنّة إنّما هو هجوم سافر علىٰ ما كان من شأنه سبحانه ولم يكن لأحد من خلقه إلاَّ بإذنه في مقام الشفاعة فقط. وما يدَّعونه من صلاحية ذلك لهم بمقتضىٰ عقائدهم الفاسدة هو زيف وكذب وبُطلان.

والحديث بهذا السياق يُعدُّ من أحاديث البشارات].

❑ ❑ ❑

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

الحديثُ الرابع والثلاثون

مِنْ ثِمارِ الصَّلاة

عنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

«قَالَ اللَّهُ تَعَالىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ صَلِّ لِيَ أَرْبَعَ رَكَعاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ»[1].

[رواه الترمذيُّ بسندٍ صحيحٍ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يا ابن آدم»:

نداء لكلِّ فرد من أفرادِ المكلَّفين من بني آدم، ويشمل الخطاب المكلَّفين من الجنِّ لعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[2]. وأُفرِد ابن آدم بالنداء تغليباً لكون رسول الله ﷺ منهم ولكونهم مقدَّمين علىٰ الجنِّ في بَدْء التبليغ كما هو ثابت في الصحيح.

ومن قرأ الخطاب الإلٰهيَّ في القرآن الكريم والحديث القدسيِّ وجده موجَّهاً إلىٰ ابن آدم، وقلَّما جاء موجَّهاً إلىٰ الجنّ، ولا يعني ذلك عدم

---

(١) صحيح الإسناد. انظر: «الجامع الصغير» للإمام السيوطيّ ٢/ ٦٧٣.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

تكليفهم، وإنَّما جاء خطاب الله بهذا التوجُّه تغليباً كما سلف بيانه، لأنَّ الثابت أنَّ رسالة النبـيِّ ﷺ للإنس والجنِّ رسالةُ تكليف].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «صَلِّ لي أَرْبَعَ رَكَعاتٍ»:

هي الفجر وسنَّته، وقيل: صلاة الضُّحىٰ والأوَّل أولىٰ.

[وكلاهما من أوَّل النهار، ورُجِّحت صلاة الفجر لتقدُّمها في وقت الأداء علىٰ الضحىٰ إذا اعتبرنا بداية النهار مِن طلوع الفجر، ولكونها فَرْضاً ولتخصيص الملائكة بشهودها حيث قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾[1]، ولِقوله ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا بما فيها»[2].

وقوله تعالىٰ: «صَلِّ لِيَ»، إشارة إلىٰ أنَّ الصلاة التي تبلغ بصاحبها هذه الدرجة وتجعله يفوز بتلك الثمرة هي التي تكون خالصةً لله، لا تشوبها صوارف الدنيا وخواطر النفس واختلاسات الشيطان، وإنَّما تكون مُتَّصفةً بكامل الخضوع وبالغ الخشوع تتطامن فيها النفس لخالقها، وتستكين فيها الجوارح لبارئها، وتسمو فيها الروح بمعراج العبوديّة الخالصة لربّ العالمين. جاء في التنزيل العزيز قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[3].

وأمَّا من صلّىٰ تلك الركعات بلا تضرُّعٍ ولا خشوع وكانت مجرَّد حركات تقوم بها جوارحه خاوية من روح العبادة، فلا يتدبر فيها تلاوة القرآن، ولا يتفكَّر فيها بذكر الرحمن، ولا تخضع فيها منه الأركان، وتَصْرِفُه

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٢) رواه مُسْلِم.

(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ١، ٢.

عن معناها المقدَّس صوارفُ التفكُّر بماله وطعامه وشرابه وهموم عيشه ومشاغل دنياه، فإنَّ تلك الصلاة لا تكون جديرةً بأن ترقىٰ بصاحبها إلىٰ ذلك المقام الكريم وخاصَّةً إذا لم يكن فيها من المخلصين.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أوّل النَّهارِ»:

النَّهارُ: الوقت الذي ينتشر فيه الضوء، وهو في الشَّرْع من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، وفي الأصل ما بين طلوع الشمس إلىٰ غروبها. قال أبو هلال العسكري: أصله من السَّعة والفُسحة، وقيل: من الزجر والدفع كقولك: نهرتُه وانتهرتُه إذا زجرته ودفعته كما جاء في التنزيل العزيز: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾[1]، وكأنَّ ضوء النَّهار عند طلوعه يزجر ظلام الليل ويدفعه عن الكون ليأخذ مكانه، فبات النَّهار آخذاً في الإقبال والليل آخذاً في الإدبار، فأصبحا بذلك كأنَّ النهار هازم والليل مهزوم، وهذا ما أشار إليه الفرزدق في المجاز حين قال:

والشيب ينهضُ في السَّواد كأنَّه ليل يصيح بجانبيه نهارُ

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَكْفِكَ آخِرَهُ»:

أي: أكفيك همَّ طلبِ حَوائجك من أمور دنياك، وأقيكَ شرَّ ما تتقيه، وأَهديك إلىٰ مصالحك في يومك كلِّه. فمن سلمت الساعة الأولىٰ من يومه فملأها بطاعة الله وحسن عبادته فاز بوعد الله تعالىٰ له بأن يكفيه آخر ذلك اليوم، ويزيده من فضله هداية ووقاية، والله ذو الفضل العظيم].



(١) سورة الضُّحىٰ: الآية ١٠.

الحديثُ الخامس والثلاثون

تفرُّغ العبد لعبادة الله

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّـهَ تَعَالىٰ يَقُولُ: يا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنَىٰ، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلاً، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[1].

[رواه أحمد، والتِّرمِذيُّ، وابنُ ماجه، والحاكم]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي»:

أي: اترُكْ اشتغالك بالدنيا، أي: ما زاد علىٰ قدر كفايتك وكفاية عيالك، واشتغل بعبادتي، أمّا الاشتغال بقدر الكفاية فلا بأس به، بل هو عبادة عند حسن النيّة، [لأنَّ الأصل عبادة الله تعالىٰ وذلك لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[2].

والعمل بالأصل مقدَّم علىٰ غيره، فلا يجوز للعبد أن يترك عبادة الله

(١) صحيح الإسناد.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

تعالىٰ ويشتغل بطلب الدنيا وتحصيل زينة الحياة الفانية، وأمّا العمل الذي تتوقَّف عليه مصالح العباد، ولا يستقيم معاشهم إلاَّ به، فهذا لا يتعارض مع طلب التفرُّغ لعبادة الله، لأنَّه منها كما هو ثابت في نصوص الشريعة الغرّاء، فقد أمر الله تعالىٰ بطلب الرزق والسعي في مناكب الأرض تحصيلاً لِلُقْمَةِ العيش وإصلاحاً لمعاش الخلق، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2].

وجاء في السنَّة قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَمْسَىٰ كالاًّ من عمل يده أَمْسَىٰ مَغْفُوراً لَهُ»[3]، وقال: «اطلبوا الرِّزق في خبايا الأرض»[4]، وقال: «إنَّ من الذُّنوب ذُنوباً لا يُكفِّرها الصلاة ولا الصدقة ولا الحَجُّ، ويُكفِّرها الهمُّ في طلب المعيشة»[5].

ولا ريب في أنَّ تكفير الذنوب لا يكون إلاَّ في العبادات والقُربات والطاعات لا في العادات والمباحات، فدَلَّت هذه النصوص علىٰ أنَّ العمل والسعي وبناء الحياة بما تتحقَّق به مصالح الخلق عبادةٌ وطاعةٌ لربِّ العالمين، ويُؤكِّد هذا أيضاً أنَّه ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه سأل عن أحد المسلمين فقالوا: إنَّه ذو عيال، فقال: «هو في سبيل الله».

ويضاف إلىٰ ذلك أنَّ هناك واجبات شرعية تتوقَّف علىٰ العمل والمشي

---

(١) سورة المُلْك: الآية ١٥.

(٢) سورة الجمعة: الآية ١٠.

(٣) رواه الطبرانيُّ عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) رواه أبو يَعلىٰ في مسنده.

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية، وابن عساكر.

في طلب الرزق كنفقة الزوجة والأولاد والوالدَيْنِ وكفِّ النفس عن سؤال الناس. فهذا السعي لا يَخْرُج عن نطاق عبادة الله.

والمذموم هو ترك عبادة الله وإيثار الاستكثار من الدنيا وطلبِ المعاش فوق الحاجة علىٰ حساب القيام بحقوق المولىٰ سبحانه.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى»:

أي: بالإيمان، لأنَّه الغِنىٰ الحقيقيُّ لِقوله ﷺ: «ليس الغنىٰ عن كثرة العرض، ولكنَّ الغني غنىٰ النفس»[1].

وبالقناعة والرضا بالرزق المقسوم، وبالزهد بالدنيا وعدم التعلُّق بزهرتها الفانية. فمن خرج حبُّ الدنيا من قلبه وغَنِيَ بربِّه كان أسعد الناس، لأنَّه سلك سبيل النجاة يوم الدِّين، ورحم الله القائل:

ليس السعيدُ مَن الأموال تُسعِده   إنَّ السعيدَ الذي ينجو من النَّارِ

ومن أحبَّ الآخرة وزهد بالدنيا استوىٰ عنده ذهبها ومدَرُها، ومن استوىٰ عنده ذهب الدنيا ومدَرُها بلغ الغنىٰ الحقيقيَّ وهو عين الإيمان، وهذا ما أحسَّ به شابٌّ من الأنصار اسمه حارثة، عندما التقاه رسول الله ﷺ في أحد طرقات المدينة فسأله: «كيف أصبحت يا حارثة؟»، قال: أصبحتُ مؤمناً بالله حقّاً، فقال: «انظر ما تقول فإنَّ لكلِّ قولٍ حقيقة»، قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا وأسهرتُ لذلك ليلي وأظمأت نهاري، وكأنِّي أنظر إلىٰ عرش ربّي بارزاً، وكأنِّي أنظر إلىٰ أهل الجنَّة يتزاورون فيها، وكأنِّي أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغَوْن فيها، فقال: «يا حارث، عرفتَ فالزم»، قالها ثلاثاً[2].

---

(١) رواه البخاريّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابن ماجه.

(٢) أخرجه الطبرانيُّ، وأبو نُعيم في الحلية.

وقوله: «صدرك»، أي: قلبك، لأنَّ الصدر قفص القلب، فذكر المحلّ وأراد الحالّ فيه، وهذا يُسْتَوْضح من قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1]].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَأَسُدُّ فَقْرَكَ»:

أَيْ: أُصْلِحُ فقرك بأن أُرضيك به بحيث لا يحصل لك ضجر.

[وبفتح أبواب الرزق لك، وإفاضة الخير عليك، وجعل البركة فيما قُسِم لك، فلا تحمل همَّ معاشك، لأنَّ الله تعالىٰ تكفَّل لك برزقك، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾[2]. وجاء في الحديث: «من انقطع إلىٰ الله كفاه الله كلَّ مؤنةٍ ورزقه من حيث لا يحتسب»[3]، وقال تعالىٰ حاضّاً علىٰ حُسن عبادته ومُطَمْئناً قلب العبد المؤمن علىٰ لقمة عيشه، وذلك في معرِض خطابه للنبيِّ الكريم محمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾[4].

قالوا: مَن انشغل بعبادة مولاه، تكفَّل له بهموم دنياه.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ»:

تهديد لمن لم يتفرَّغ لعبادة الله، وانشغل عنه بسواه، وجعل دنياه أكْبر همِّه، ولم يؤدِّ ما وجب عليه من حقِّ ربِّه].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلاً»:

أي: جعلتُك مشغولاً بِدُنياك جميع أوقاتك.

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٤٦.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٣) رواه الطبرانيُّ، والبيهقيّ عن عمران بن حصين.
(٤) سورة طه: الآية ١٣٢.

[وأتعبتُك في طلب الدنيا، وجعلتُك تلهث خلفها ليلك ونهارك بلا راحة ولا هناء، فما أبطأ ما تصل إليك وما أسرع ما تخرج من يديك، لتجتهد في طلبها مرَّةً أخرىٰ، وتكدَّ في تحصيلها من جديد، فلا تجني منها إلاَّ تعباً متواصلاً وهمّاً متلاحقاً.

ولا يبلغ الإنسان من بعد سعيه من الرِّزق إلاَّ ما أتاه مقدّرا

ومِن مظاهر ذلك الشُّغل محقُ البركة، فيعمل العبد البعيد عن الله طيلة يومه بجمع المال وتحصيل الدنيا، ولا يجد ما حصَّله يبلغ كفايته.

وقوله: «مَلأْتُ يَدَيْكَ»: هذا من حيث الغالب، لأنَّ العمل في غالب أحوال الإنسان يكون بيديه، وإن كان ثَمَّة سَعْيٌ في طلب الدنيا وجمع المال والمتاع بواسطة سائر الجوارح كالمشي والتفكير].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»:

أي: تستمرُّ فقير القلب مُنْهَمِكاً في طلب الدنيا، وإن كنت غنيّاً من المال.

[لأنَّ الذي ينشغل بجمع الدِّرهم والدينار ويترك عبادة الله سبحانه يسوقه طمعه بالدنيا وزينتها الفانية إلىٰ الفقر، وذلك أنَّه كلَّما أخذ من زينة الحياة ازداد رغبةً في الحصول علىٰ قَدْر أكثر كما جاء في المثل القائل: الدنيا كالماءِ المِلْح كُلَّما ازددت منه شُرباً ازددت عطشاً. فيشعر أنَّه بالنسبة لما لَمْ يحصل عليه فقيرٌ، ولو تحلَّىٰ بالقناعة لما أحسَّ بهذا الشعور. فهو غنيٌّ وفقير في وقت واحد؛ غنيٌّ بما في يده، وفقير إلىٰ ما يطمع به.

ويجوز حمل الحديث علىٰ ظاهره، وهو أنَّه فَقْر حقيقي، وذلك أَنْ

تأتي علىٰ ماله الجوائح والآفات فتُهلكه، فما أسرع ما يتلف ماله كُلَّما تجمَّع في يده، فيبقىٰ في فَقْرٍ دائم وهو مستمرٌّ في طلب الدنيا حثيثُ اللَّهَث وراء لقمة العيش. وذلك لأنَّ الله تعالىٰ وَكَلَه لنفسه، أي وَكَلَه إلىٰ ضَعْفِه وفَقْره وعَجْزه].



الحديثُ السادس والثلاثون

الحثُّ علىٰ الحجّ إلىٰ بيت الله الحرام

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـٰهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـٰهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّـٰهَ تَعَالىٰ يَقُولُ: إِنَّ عَبْداً أَصْحَحْتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ، تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوامٍ لاَ يَفِدُ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ»(١).

[رواه أبو يَـعْلىٰ في مسنده،
وابـن حِـبّان بسندٍ صحيحٍ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «إِنَّ عَبْداً أَصْحَحْتُ لَهُ جِسْمَهُ»:

أي: مِـن المكلَّفيـن، ويُـراد بـالنكـرة ــ هنـا ــ العمـوم، والـوصـف بالعبودية قائمٌ في كلِّ إنسان طائعاً كان أم عاصياً، بل هو وصف لكلِّ مخلوق عاقلٍ أو غير عاقل، حيٍّ أو جامد.

قوله: «أصححتُ له جِسْمَه»: أي: أبرأته من المرض وجعلته صحيحاً معافًى قويّاً صالحاً قادراً علىٰ القيام بالأعمال وأداء العبادات، لا سيَّما عبادة

(١) صحيح الإسناد.

الحجِّ التي يحتاج أداء مناسكها إلىٰ جهد وصِحَّة في أبدان المكلَّفين لكثرة المشقّات فيها عبر الانتقال بين المناسك].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ»:

أي: زيادةً علىٰ قدر حاجته بحيث يستطيع الحجَّ [، لأنَّ معظم المسلمين المكلَّفين بأدائه تتناءىٰ أقطارهم عن مواطن المناسك، فيحتاجون إلىٰ مؤنة ذهابهم إليها وإيابهم إلىٰ بلادهم ونفقة عيالهم خلال غيابهم في أداء الحج وحتىٰ عودتهم.

ولمّا سُئل النبيُّ ﷺ عن معنىٰ الاستطاعة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1]، أجاب: «الزاد والراحلة»[2]. وهما المقصود بالنفقة الزائدة علىٰ نفقة أهل مريد الحجّ خلال أداء مناسكه، فمن لم يجدها في أشهر الحجّ لا يكون مستطيعاً، فلا يُكلَّف بأدائه لفقد الاستطاعة.

والمراد بالمعيشة في قوله تعالىٰ: «في معيشته»: ما يُعاش به من طعام وشراب ونحوهما، وهي علىٰ وزن فَعِيلة، وأصلها مَعْيِشَة علىٰ وزن مَفْعِلة والياء فيها أصليّة، وتُجمع قياساً علىٰ مَعايِش، وقُرِىء في التنزيل العزيز: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[3] علىٰ الأصل. ومن جمعها علىٰ معائش كان علىٰ غير القياس، وتبع بهذا الجمع وزن فَعِيلة، فأشبهت صحيفة وكتيبة وكلَّ ما كانت ياؤه زائدة، ورُوي عن نافع أنَّه قرأ: «وجعلنا لكم فيها معائش» بالهمز.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) رواه الحاكم في مسنده، والبيهقيُّ في سُننه.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٠، وسورة الحِجْر: الآية ٢٠.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوامٍ»:

أي: تمرُّ عليه خمس سنوات وهو صحيح الجسم واسع الرزق ثمَّ لا يقصد بيتي الحرام بحجٍّ أو عُمرةٍ لمحروم].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «لَا يَفِدْ إِلَيَّ»:

أي: لا يزور بيتي ـ وهو الكعبة ـ يعني لا يقصدها بنُسُكٍ.

[والأصل في الوُفود القدوم علىٰ عظيم المكانة، قال الأصمعيُّ: وفد فلانٌ يفِد وِفادةً إذا خرج إلىٰ ملك أو أمير، وقال ابن سِيده: وفد عليه وإليه يَفِد وَفْداً ووُفُوداً ووِفادةً: قَدِم. والوَفْد جمع وافِد وهم القوم يجتمعون فيقصدون العظماء والأمراء لزيارة واسترفادٍ وغير ذلك.

جاء في التنزيل العزيز: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾[١]، وجاء في الحديث: «الحُجّاج والعُمّار وَفْد اللّٰهِ، إنْ دَعَوه أجابَهُم، وإن استغفروه غفر لهم»[٢].

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَفْد اللّٰهِ تعالىٰ ثلاثة: الغازي والحاج والمُعْتَمِر»[٣].

وسُمّي الحُجّاج والعُمّار وَفْداً، لأنَّهم في أكثر أحوالهم يؤمُّون البيت الحرام جماعات جماعات، ويقصدون بجموعهم الغفيرة الربَّ الكريم سبحانه، فيُخضِعون رقابهم عند كَعْبَته، ويُقدِّمون له خالص العبوديَّة، ويسألونه العفو والغفران بقلوب خاشعة ونفوسٍ خاضعة وعيون دامعة.

---

(١) سورة مريم: الآية ٨٥.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه النسائيُّ.

فيجيب دعاءهم بوَعْده حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، ويغفر لهم بفضله حيث قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[2]].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «لَمَحْرُومٌ»:

أي: من الخير الحاصل بفعل النُّسُك، وقال المناويُّ: لدلالته علىٰ عدم حُبِّه لربِّه، [لأنَّ المحِبَّ يقصد محبوبَه، ويُكثر من التردُّد عليه، فمن استطاع أن يفعل ذلك ولم يفعله دلَّ علىٰ قِلَّة محبَّته، ولا خير أعظم من أن يَخرج العبد مِن ظُلمة ذنبه، ويكرمه الله بأنوار قُرْبه، ويُفيض عليه من رحمته وحُبِّه.

والحجُّ والعُمرة يحقِّقان ذلك للعبد المخلص حيث جاء في الحديث: «مَنْ حجَّ لله فلم يرفُث ولم يَفسُق رجع كيوم ولدته أُمُّهُ»[3]، وروىٰ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسُولُ اللّٰهِ ﷺ: «تابعوا بين الحجِّ والعُمْرة، فإنَّهما ينفيان الفقر والذنوب، كما يَنفي الكيرُ خَبَث الحديد»[4].

والعبد الكيِّس هو الذي يحرِص علىٰ طهارة نفسِه من الذنوب وخلاصه من الأوزار في جميع أوقاته وسائر أحواله، وفي المتابعة بين الحجِّ والعمرة تحقيق ذلك].



(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة نوح: الآية ١٠.

(٣) متَّفق عليه.

(٤) رواه النَّسائيُّ.

الحديثُ السابع والثلاثون
ذِكْـر الله

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـٰهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـٰهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّـٰهَ تَعَالىٰ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي[1] وَتَحَرَّكَتْ بِـي شَفَتَاهُ»[2].

[رواه أَحْمد، وابنُ ماجَه]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَنَا مَعَ عَبْدِيْ»:

أي: معه بالرحمة والتوفيق والهداية، [لا معيَّة الذات، لأنَّ ذاته سبحانه لا تتمكَّن بمكان، ولا تتقيَّد بزمان، فوجب تأويل معيَّته لعبده بما يليق بذاته سبحانه مما يجب لها، ويستحيل عليها].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «مَا ذَكَرَنِي»:

أي: مدَّة ذِكْره لي [، فما زمانيَّة].

---

(١) نصّه في سنن ابن ماجَه: «إذا هو ذكرني».

(٢) حديث حسن الإسناد.

والذِّكْر أنواع ثلاثة: ذِكْر اللِّسان، وإن كان القلب غافلاً فهو ذكر العوام وفيه ثواب.

وذِكْر الخواص: ذِكْر اللِّسان مع حضور القلب بالتفكُّر في مصنوعاته ونحو ذلك.

وذِكْر خواص الخواص وهو أن يغيب في الشُّهود عن كلٍّ ما سواه تعالىٰ، ولم يخطِر به غيره تعالىٰ. وهذا يناسبه الذِّكْر المفرد نحو: الله الله، وهكذا، إذْ ليس في ذهنه غيره تعالىٰ حتىٰ يحتاج للنفي والإثبات، فهذا إنَّما يكون لأهل هذا المقام، وإن كان أهل الشريعة يقولون: لا يُثاب إلاَّ بملاحظة نحو معبود أو موجود، لأنَّ هذا مَلْحَظ صوفيٌّ لأهل الحقيقة. فلو أراد الجمع بين الظاهر والباطن لاحظ هذا المقدر.

[والذكر أعلىٰ العبادات وأفضل القربات لقوله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضَّة، وخير لكم من أن تلقوا عدوَّكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: بلىٰ، قال: «ذِكْر الله تعالىٰ»[1].

ولقد حضَّ الله تعالىٰ علىٰ ذكره فقال في كتابه العزيز مخاطباً عباده جميعاً: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، وقال مخاطباً المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾[3]، وقال مخاطباً أشرفَ خلقِه سيِّدنا ومولانا محمداً ﷺ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾[4]. وأثنىٰ علىٰ عباده

---

(١) رواه الترمذيُّ، قال الحاكم أبو عبد الله: إسناده صحيح.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤١.

(٤) سورة المزمّل: الآية ٨.

الذاكرين فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾(١).

وبشَّر الذاكرين بطُمأنينة القلب ونعيم المجالسة وشرف المكانة عنده، فقال: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾(٢)، وقال في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني»، وقال: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه»(٣).

وحضَّ رسول الله ﷺ علىٰ ذكر الله في كلِّ حال، وبيَّن أنَّه خير ما يلازمه العبد المؤمن وأفضل ما يتزوَّد به، فروىٰ عبد الله بنُ بُسْرٍ رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ شرائع الإسلام قد كثُرت عليَّ، فأخبِرْني بشيءٍ أتشبَّثُ به، قال: «لا يزال لسانُك رَطْباً من ذكر الله»(٤).

وأعلىٰ ألفاظ الذكر قول: لا إلـه إلاَّ الله، فقد جاء في الحديث قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذِّكْر لا إلـه إلاَّ الله»(٥).

واعلم أنَّ ملازمة ذكر الله تعالىٰ حِصْن منيع يحجز العبد عن الحرام وانزلاق الأقدام، ويُثبِّته علىٰ طاعة الرحمـن، ويجعله دائم المراقبة بعيداً عن الغفلة، فلا يأتي إلاَّ ما يرضي الله، ويُعرِض عن كلِّ ما يُسخِط مولاه.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠، ١٩١.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٣) رواه البخاريُّ ومُسْلِم.

(٤) رواه الترمذيّ، وقال: حديث حسن.

(٥) رواه الترمذيّ، وقال: حديث حسن.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَتَحَرَّكَتْ بِـي شَفَتَاهُ»:

تأكيد لمعيَّته سبحانه وسرعتها إلىٰ العبد الذاكر وفوزه بها كلَّما ذكر الله. وليس المراد ــ هنا ــ أن الذِّكر لا يكون إلاَّ باللِّسان، بل هو ضَرْبان: قلبـيٌّ ولسانيٌّ.

وذكر اللِّسان لا يتيسَّر للعبد في كلِّ آن لانشغاله بألفاظ البيع والشِّراء وطلب الحاجات وأداء الواجبات وغير ذلك من الصوارف والمُلهِيات، بخلاف الذكر القلبـيِّ الذي يُتصوَّر انقطاعه عن المُلهِيات ودوامُه في أوعية القلوب التي هي موضع الإيمان ومحلُّ نظر الرحمن حيث قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم، ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»[1].

والذِّكر القلبـيُّ هو أعلىٰ درجات الذِّكر وأشرف حالاته، لأنَّه الأصل، ولقد صدق الشاعر حين قال:

إنَّ الكــلامَ لفــي الفــؤادِ وإنَّمــا ... جُعِـل اللِّســانُ علـىٰ الفـؤاد دليـلاً

وجاءت النصوص الشرعيَّة مؤيِّدَةً لذلك؛ ففي القرآن الكريم قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾[2]، أي: في قلبك، بدليل قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ... ﴾[3]، وقال: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[4].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يفضُل الذكر»، أي: الخفيّ «علىٰ الذكر»، أي: الجهريّ «بسبعين ضِعْفاً،

---

(١) رواه مُسْلِم عن أبـي هريرة.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.

(٣) سورة المجادلة: الآية ٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٥.

إذا كان يوم القيامة رجع الله الخلائق إلىٰ حسابه، وجاءت الحفظة بما حفظوا وكتبوا قال الله تعالىٰ: «انظروا هل بقي لعبدي من شيءٍ؟ فيقولون: ما تركنا شيئاً مما علمناه وحفظناه إلاَّ وقد أحصيناه وكتبناه، فيقول الله تعالىٰ: إنَّ لك عندي حُسْناً وأنا أجزيك به، وهو الذكر الخفيّ»[1].

وروىٰ أبو عوانة وابن حِبّان في صحيحَيْهما والبيهقيُّ: «خير الذكر الخفيُّ وخير الرزق ما يكفي»، وقال: «الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد علىٰ الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضِعفاً»[2].

وقالوا: ذِكْر اللِّسان عرضة للرّياء، وذِكْر الجَنان ملازم للصفاء، ورحم الله القائل:

بقلـــبٍ فـــاذكـــر الله خفيّـــاً ... عـــن الخلـــق بـــلا حَـــرْفٍ وقـــالِ
وهـــذا الـــذِّكْـــر أفضـــل كـــلِّ ذِكْـــرٍ ... بهـــذا قـــد جـــرىٰ قـــولُ الـــرجـــالِ

❑ ❑ ❑

---

(١) رواه البيهقيُّ.

(٢) رواه البيهقيُّ، وهو حسن لغيره.

الحديثُ الثامن والثلاثون

أَفضل نعيم أهل الجنَّة

عَنْ أَبِـي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّـهَ تَعَالىٰ يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

[رواه أحمد، والشَّيْخان، والتِّرمِذِيُّ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ»:

نـداء تبشيـر وإكـرام، لأنَّ الجنَّـة دار النعيـم ليـس فيهـا كَـرْب ولا هـمٌّ ولا حُزن ولا ألم، فهي كما وصفها الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا

﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾[1].

وبقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾[2].

والمراد بأهلها المؤمنون الذين استقاموا في الدنيا علىٰ منهج الله، وكانوا عباداً صالحين، وماتوا علىٰ الإيمان بالله ربِّ العالمين].

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وَسَعْدَيْكَ»:

لَبَّيْكَ ربَّنا: من التلبية، وهي إجابة المنادي [وهو مصدر سُمِع مثنًى هكذا، ومعناه: أجبتُك إجابةً بعد إجابة، أي كلّما دعوتني أجبتُك، فيُراد بتثنيته التكثير لا حقيقتها. وهذا المصدر مفعول مطلق نائب عن فعله].

وَسَعْدَيْكَ: بمعنىٰ الإسعاد وهو الإعانة، أي: نطلب منك إسعاداً بعد إسعادٍ.

[وهو مثل لَبَّيْك سُمِعَ مثنًّى ومعناه: إسعاداً بعد إسعاد، أي: كلَّما دعوتَني أسعدتُك، وهو مثل **لبَّيْك** في الإعراب، ولا يستعمل إلاَّ تابعاً له، فتقول: لبَّيْكَ وسَعْدَيك، ولم يَرِد استعمال سَعْدَيْك وحدَه بخلاف لبَّيْك فقد جاز استعماله وحده كتلبية الحُجَّاج حال الإحرام بالحجِّ بقولهم: «لبَّيْك اللّٰهم لبَّيْك...».

وذهب بعضهم ومنهم يونس بن حبيب الضبِّي: إلىٰ أن لبَّيْك ليس بمثنًّى، وإنَّما هو مثال عليك وإليك. أقول: الأول هو الصواب وعليه الأكثرون].

---

(١) سورة الحِجْر: الآيات ٤٥ ــ ٤٩.

(٢) سورة الزخرف: الآيتان ٧٠، ٧١.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «هَلْ رَضِيْتُمْ»:

أَيْ: بما صِرْتم إليه من النَّعيم المقيم، والاستفهام [ـ هنا ـ] للتقرير. [ولا مِرْية في أنَّ النجاة من عذاب الله تستدعي الرِّضا ـ وهو اطمئنان القلب بالمصير وسروره به ـ فكيف إذا كُوفىء العبد الناجي بألوان النَّعيم في جنّات الخلود؟! لا ريب في أنَّ رضاه بما آل إليه يكون آكد وسروره به أعظم.

وهذا ما أعرب عنه أهل الجنَّة من المؤمنين كما جاء في الحديث عن صُهَيْب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئاً أزيدكُم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدْخِلْنا الجنَّة وتُنَجِّنا من النار؟ فيكشِفُ الحجابَ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلىٰ ربِّهم»[1].

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ»:

أقرّوا بالرِّضا بصيغة الاستفهام مشاكلةً لصيغة التقرير وتأكيداً للرضا ودفعاً للاحتمال في جملة الجواب الخبريَّة حيث ينتفي الاحتمال في صيغة الإنشاء. نحو قولنا: هل تحبّ فلاناً؟ فيُجيب: وما لي لا أُحِبُّه؟ فهو يُقِرُّ بِحُبّه، وينفي عنه كلَّ سبب يمنع من حُبِّه بصيغة الاستفهام، فإذا انتفىٰ سبب منع الحبِّ ثبت الحبُّ وتأكّد].

قَوْلُهُ: «وَقَدْ أَعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ»:

أَيْ: الذين لم تُدْخِلْهم الجنَّة، [لأنَّه لا يفوز بعطاء الله تعالىٰ إلاَّ أهلُ

---

(١) رواه مُسْلِم.

الجِنان، أمّا أهل النِّيران فهم أهل الحِرْمان، كما جاء في التنزيل العزيز حديثاً عن الفريقين: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾[1].

والعطاء هو النوال الذي يبذله الكريم للفقير وذوي الحاجة. تقول: أعطاه كذا، أي: بذله له وقدَّمه إليه، وهو مأخوذ مِن يعطو الظبـيُّ: إذا تتطاول ورفع يديه ليتناول الشجر، قال الشاعر:

كـأن ظبيـةٍ تعطـو إلـىٰ وارق السَّلَـم

أي: كظبية ترفع يديها وتمدُّهما إلىٰ ورق السَّلَم لتأكله.

وتفسيره: أنَّ الكريم يمدُّ يده بالمال ونحوه إلىٰ الفقير، والفقير يمدُّ يدَه إلىٰ الكريم ليأخذ منه ما يبذله له.

وأصل العطاء: عطاو بالواو، لأنَّه من عَطَوْت، فقلبت الواو همزة لوقوعها متطرِّفة بعد الألف، لأنَّ العرب تهمز الواو والياء إذا جاءتا بعد الألف لكون الهمزة أحمل للحركة منهما، فنقول: سماء وبناء، وأصلهما سماو وبناي.

والأصل في العطاء أن لا يكون إلاَّ في الخير، وهذا ما يتناوله أهل الجنَّة في الجنَّة من ربِّ العالمين، قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾[2]، وقال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾[3].

---

(١) سورة هود: الآيات ١٠٥ ــ ١٠٨.

(٢) سورة النبأ: الآية ٣٦.

(٣) سورة هود: الآية ١٠٨.

والعطاء لا يكون إلَّا تفضُّلاً من المُعطي لا مكافأةً علىٰ عملٍ أو مثوبةً علىٰ خير قام به المُعطىٰ له.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»:

ألا: أداة عَرْض تضمَّنت معنىٰ التشويق والترغيب.

وقوله: «أَفْضل»: تفضيل فيه معنىٰ زيادة الإكرام والإنعام من فضل المولىٰ الكريم سبحانه علىٰ عباده المؤمنين في جنَّة النَّعيم.

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟»:

ينادون الله تعالىٰ بمقام الربوبيّة، لأنَّهم يعيشون في غَمرة الإنعام وفيوضات الإكـرام. ولمّا كان ما نالوه من التكريم، وفازوا به من ألوان النعيم فـوق تصوُّر العـقـول قـالــوا: يا ربُّ وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ حيث لا يتصوَّرون من أنواع الإنـعـام ومـظـاهـر الإكرام أفضل ممَّا صاروا إليه.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي»:

بضمِّ أوَّله وكسر الحاء المهمَلة، أي: أُنزِل.

والرِّضوان بكسر الراء وضمِّها مصدر علىٰ وزن فعلان، والقُرّاء كلُّهم قرؤوا «الرِّضْوان» بكسر الرَّاء إلَّا ما رُوي عن عاصم أنَّه قرأ «رُضْوان» بضمِّ الرَّاء.

وجـاء فـي حـديث جـابـر قـال: «رِضْـواني أكـبـر» وفـيـه تلميح بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[1]. فأشار إلىٰ الرِّضوان أنَّه الفوز العظيم، لأنَّ رضاه سبحانه

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٢.

سبب كلِّ فوز وسعادة، وكلُّ من علم أنَّ سيِّده راض عنه كان أقرَّ لعينه وأطيب لقلبه من كلِّ نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم.

وفي هذا الحديث أنَّ النعيم الذي حصل لأهل الجنَّة لا مزيد عليه.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً»:

تطمينٌ لنفوسهم بتمام الرِّضوان ودوامه عليهم وإقامتهم في نعيمه، فهو رِضوان لا يُتصوَّر بعده سُخْط، لأنَّه من فيضِ ربٍّ كريم إذا أعطىٰ أجزل العطاء، وإذا أكرم أعظم الإكرام].



الحديثُ التاسع والثلاثون

أهون أهل النَّار عَذاباً

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّـٰهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـٰهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّـٰهَ تَعَالىٰ يَقُولُ لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَـذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِـي، فَـأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ».

[رواه البُخاريُّ، ومُسْلِمٌ]

شرح الحديث

[قَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّـٰهَ تَعَالىٰ يَقُولُ لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً»]:

يكون هـذا يـومَ القيامة وعنـد الحساب. وكَـرِه بعض السلف أَنْ يقول الإنسان: الله يقول، وإنَّما الصواب عنده أن يُقال: قال الله بصيغة الماضي، إلاَّ أنَّ عامة العلماء ذهبوا إلىٰ جوازه، واحتجُّوا لجـوازه من الكتاب والسنَّة نحو قوله تعالىٰ: «والله يقول الحقّ»، وقول رسول الله ﷺ في هذا الحديث وغيره في الصحيحين.

و «أهون أهل النار عذاباً»، أي: أخفُّهم وأقلُّهم عذاباً في نار جهنَّم، وهو كما جاء في الحديث الصحيح: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجلٌ يُوضَع في أَخْمَص قدمَيْه جَمْرتان يغلي منهما دِماغُهُ ما يَرَىٰ أنَّ أحداً أشدُّ منه عذاباً، وإنَّه لأهونهم عذاباً»(١).

وجاء في صحيح مسلم عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «أدنىٰ أهل النار عذاباً ينتعلُ بنعلين من نارٍ يغلي دماغُه من حرارة نعليه».

وإذا كان في الجنَّة درجات يترقَّىٰ فيها المؤمنون في ألوان النعيم من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، فإنَّ في النار دركاتٍ يتردّىٰ فيها أهلها في العذاب من الأخف إلىٰ الأشدّ، وإنَّ من مظاهر خفيف العذاب بالقياس إلىٰ ما في النار من أهوال وكروب وشقاء ما جاء في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صَبغة ثُمَّ يُقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيم قطُّ؟ فيقول: لا، والله يا رب. . .».

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «لَوْ أَنَّ لَكَ مَا في الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ»:

هذا كشف عما يتمنّاه العبد من أهل النار وهو في غمرة أهوال الموقف يوم الدِّين، وإليه أشار القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾(٢).

وقوله: «كنتَ تفتدي به»: هذا استفهام حُذِفَت أداتُه وتقديره:

---

(١) متَّفق عليه.

(٢) سورة الزُّمَر: الآية ٤٧.

«أكنتَ؟». وفداه وافتداه: بمعنًى واحد، وهو أن يبذل مالاً ونحوه إلىٰ من يطالبه بنفسه أو أيّ شيءٍ آخر مقابل إطلاقه أو دفع الأذىٰ عنه، وفيه قال الشاعر:

فلـو كـان ميـتٌ يُفتـدَىٰ لفـديتُـه بمـا لـم تكـن عنـه النُّفـوس تطيـبُ

وقالوا: الأصل في الفداءِ والمُفاداة: أن تدفع رجلاً وتأخذ رجلاً، وهو ما يُعرَف بفَكاكِ الأسير، يُقال: فداه يفديه فِداءً وفَدًى، وفاداه يُفاديه مُفاداة: إذا أعطىٰ فِداءَه وأنقذه.

والكافر يتمنّىٰ أن يُنقِذ نفسه من عذاب الله يوم القيامة بكلِّ ما تصل إليه يده من الفداء كما قال تعالىٰ: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾[1]. ولكن هيهات أن يملك شيئاً في يوم يقول فيه الله تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾[2]، وهيهات أن ينفعه شيء في يوم يقول فيه الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

قَوْلُهُ: «قَالَ: نَعَمْ»:

جوابُ تَمنٍّ للخلاص والنجاة من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا»:

وفي رواية: «قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هذا».

وفي رواية أخرىٰ: «قد سألتُك أيسرَ من ذلك».

---

(١) سورة المعارج: الآيات ١١ ــ ١٤.

(٢) سورة غافر: الآية ١٦.

وفي رواية ثالثة: «فيُقال: كذبتَ قد سألتك أيسرَ من ذلك».

والمراد بأردت في الرواية الأولىٰ: طلبتُ منك وأمرتك، فيتعيَّن تأويل الإرادة علىٰ ذلك، لأنَّه يستحيل عند أهل الحقِّ حملُ: «أردت» في هذا الحديث علىٰ معنىٰ الإرادة التي هي صفة الله، ومعناها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز له. إذ لا يصحُّ عقلاً أن يقع شيء من الممكنات خلافَ مرادِ الله تعالىٰ إذا قصدنا بالإرادة الإلـٰهيَّة تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه، فإن جوَّزنا ذلك لزم منه إثبات العجز في حقه سبحانه وهذا مستحيل عقلاً ومعتقداً.

وأما مخالفة أمره سبحانه فجائزة الوقوع مِن خلقه، فقد أمر الله تعالىٰ أبا جهل بالإيمان، فأباه واختار لنفسه الكفر فوقع خلاف ما أمر الله به، ولا نقول: وقع خلاف ما أراده الله إلاَّ إذا فسَّرنا الإرادة هنا بمعنىٰ الأمر والطلب.

وأمّا قوله في الرواية الثانية: «فيُقال له كذبت»، فالظاهر أنَّ معناه أن يقال له: لو رددناك إلىٰ الدنيا وكانت لك كلّها أكنتَ تفتدي بها، فيقول: نعم، فيُقال له: «كذبتَ، قد سُئِلت أيسرَ من ذلك، فأبيتَ»، ويكون هذا من معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝٢٨﴾[1]، أي: في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾، لأنَّهم ما قالوا هذه المقالة إلاَّ عندما عاينوا العذاب، وعاشوا سوء الموقف، ورأوا لفح السعير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾، ولو عادوا إلىٰ الدنيا كرَّة أخرىٰ، وتواروا عن أهوال يوم القيامة، لرجعوا إلىٰ ما كانوا عليه من كفر وتكذيب].

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ»:

أي: حين أخذتُ الميثاق، يشير بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[1]. فهذا الميثاق الذي أُخذ عليهم في صُلْب آدم، فمن وفّىٰ به بعد دخوله في الدنيا فهو مؤمن، ومن لم يوفِّ به فهو كافر.

[ومضمون الميثاق توحيد الله تعالىٰ وعدم الشِّرك به، وأُخِذ علىٰ بني آدم وهم في عالم الأرواح قبل أن يُولَدوا في الحياة الدنيا. وكُفرهم بعد وجودهم في الدنيا طارئ علىٰ إيمانهم الأصيل الذي دلَّ عليه قول رسول الله ﷺ: «كلُّ مولود يُولَد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يُمجِّسانه»[2].

ولا ريب في أنَّ توحيدَ الله تعالىٰ والنطقَ بقول: لا إلـه إلاَّ الله، وبناءَ الإنسانِ وُجودَه علىٰ هَدْيها واستقامتَه علىٰ نورها أمرٌ يسيرٌ علىٰ العبد، ليس فيه عنت ولا إرهاق، بل هو رحمة له وسعادة وإشراق].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «فَأَبَيْتَ إلاَّ الشِّرْكَ»:

أي: امتنعتَ من الإيمان إذْ أخرجتُكَ إلىٰ الدنيا، واخترت الشِّرك.

[وفي الحديث إشارة إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ لم يكلِّف عباده بأكثر مما يطيقون، وحسبنا قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قال لا إلـه إلاَّ الله دخل

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٢) رواه الترمذيّ، والطبرانيّ، والبيهقيّ.

الجنَّة»[1]، وقوله: «مَنْ كان آخر كلامه لا إلـٰه إلاَّ الله دخل الجنَّة»[2].
فالمولىٰ سبحانه أمر عباده بالقليل وأثابهم عليه الكثير، وتفضَّل علىٰ عباده المؤمنين بأن أعانهم علىٰ الإيمان وثبَّتهم عليه، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾[3]].

❑ ❑ ❑

---

(١) رواه الطبرانيّ في الأوسط.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن معاذ رضي الله عنه.
(٣) سورة الحجّ: الآية ٥٤.

الحديثُ الأربعون

المتحابُّون في الله

عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ:

«إِنَّ اللَّـهَ تَعَالىٰ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ المتحابُّونَ لِجَلالِي؟ اليَوْمَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلِّيْ».

[رواه أحمد ومُسْلِم]

شرح الحديث

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «أَيْنَ المُتَحابُّونَ لِجَلالي»:

[الاستفهام هنا للتبشير والتكريم، لأنَّه لا يخفىٰ علىٰ الله مكانُهم ولا يغيب عنـه حـالُـهـم، فهُم تحت نظر المولىٰ سبحانه وعِلْمِه الذي قال عـن نـفـسـه: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨﴾[1]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾[3].

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٨.

(٢) سورة الحديد: الآية ٤.

(٣) سورة الحاقَّة: الآية ١٨.

قوله: «المُتحابّون لجلالي»: أي: الذين يحبُّ بعضُهم بعضاً لأجل جلالي وعظمتي وطاعتي لا للدنيا، [فلا يقوم الحبُّ فيما بينهم علىٰ أساس روابط المادَّة والشهوات وعلائق الأرض ومفاتن الحياة كالمال والجمال والجاه والمنصب، وإنَّما هو حبٌّ خالص لله.

ورواية مسلِم: «بجَلالي» بالباء الموحَّدة، وتفيد معنىٰ السَّبب، أي: «بسبب جلالي»].

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «في ظِلِّي»:

أي: ظلِّ عرشي، والمراد أنَّهم في ظِلِّه من الحرِّ والشمس ووَهْج الموقف وأنفاس الخلق.

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: «يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»:

أي: أنّه لا يكون من له ظلٌّ [مجازاً] كما في الدنيا. ويوم لا ظلَّ حال من ظلّ المذكور قبله، أي: أُظلُّهم في ظِلِّي حال كونه كائناً يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلِّي، هذا هو الظاهر كما قال العزيز في «سراج المنير»، والتوفيق من الباري.

[وقال عيسىٰ بن دينار: معناه كفُّه من المكاره وإكرامُه وجعلُه في كنفه وستره.

وقيل: يحتمل أنَّ الظلَّ ــ هنا ــ عبارة عن الراحة والنَّعيم، يُقال: هو في عيشٍ ظليل، أي: طيِّب.

وقيل: المراد بظلِّ الله رحمته.

وهذا الحديث من أحاديث البشارات].

ونسأل الله رِضوانَه في الدنيا والآخرة ونحمده ونشكُره علىٰ النعماءِ والبلوىٰ، ونُصلِّي ونُسلِّم علىٰ محمّدٍ نبيِّه المصطفىٰ ورسوله المُجْتَبىٰ، وعلىٰ سائرِ جميع الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آلِ كلٍّ وأصحابِهم وأتباعِهم أَجمعين.

والحَمْدُ للّٰهِ رَبِّ العَالَمِينَ

تَمَّ بِعَوْنِ اللّٰهِ المُعِين

❑ ❑ ❑

مصادر الشّرح

* أحْسَن المحاسن ــ «للرقّي».
* إحياء علوم الدين ــ «للإمام الغزالي».
* أساس التقديس ــ «للإمام الفخر الرازي».
* الإمام ملا علي القاري وأثره في علم الحديث ــ «لخليل إبراهيم قوتلاي».
* تفسير الآيات القرآنية في القرآن ــ «لعبد المنعم السيِّد».
* تفسير القرآن العظيم ــ «للإمام ابن كثير».
* الجامع الصغير ــ «للإمام جلال الدين السيوطيّ».
* جامع بيان العلم وفضيلته ــ «للإمام يوسف بن عبد البرّ النمريّ».
* سنن ابن ماجه.
* شرح جوهرة التوحيد ــ «للإمام الباجوريّ».
* شرح صحيح مسلم ــ «للإمام النوويّ».
* عوارف المعارف ــ «للسهروردي».
* فتح الباري في شرح صحيح البخاريّ ــ «للإمام ابن حجر العسقلاني».
* القاموس المحيط ــ «للفيروزآبادي».
* كتاب الأسماء والصفات ــ «للإمام البيهقيّ».
* كنز العمّال ــ «للإمام علاء الدِّين عليّ المتَّقي الهندي».
* لسان العرب ــ «لابن منظور».
* مدارج السالكين ــ «للإمام ابن قيم الجوزيّة».
* المفردات ــ «للراغب الأصفهانيّ».

• • •

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة

الجزء الثالث





تأليف

نذير محمد مكتبي

دار البشائر الإسلامية